

الطبعة الأولى



الثالوث العجاف

رواية

تأليف

عائض السبيعي



الثالوث

العجاف

تأليف

عائض السبيعي

□ الثالوث العجاف

عائض السبيعي

اسم الكتاب: :: الثالث العجاف
اسم الكاتب :: عائض السبيعي
رقم الإيداع :: ٠٢٢٢ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي :: 978-977-85985-7-5

تذير

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
إلا بموافقة خطية من المؤلف.



READ PUBLISHER

جمهورية مصر العربية

هواتف: :: ٣٥٦٥٦٥٢ / ٠٤٨ / ٠٠٢

المبيعات: :: تحويل داخلي ١٣

إدارة النشر: :: +201000774595

إدارة التسويق: :: +0201001253496

ReadPublisher.com

لشراء الكتاب ليصلك اينما كنت

Ishturi.com

الطبعة الأولى

1444هـ - 2024م

كافة الحقوق محفوظة



READ PUBLISHER
للطباعة والنشر والتوزيع

الفصل الأول

في صيف يونيو من عام ١٩٧٥ ، صحا جمعان من سباتٍ عميقٍ ،
وإذا به يعبس عبوساً خفياً لا يحاول إظهاره ، فالعبوس اليوم أولى
لفقيد الأمة ، فما زالت الشعوب في عدة الحزن الجائرة لفقدانهم
رجلاً من رجالات القيادة ودهاة السياسة ، جلالة الملك فيصل الذي
مر على حادثة اغتياله ثلاث أشهر ، رغم ذلك فلا عنجهية أن تعاسة
وفرح الإنسان بعد صحوته من نومته لا يتزامن إلا مع كابوس عابر
يرعبك فتفضل نسيانه أو حلم سمردي تتذكره عند انطوائك على
نفسك ، الحلم الأول يذهب إلى حافة النسيان ، بينما الحلم الأخير
المرغوب فهو سمردي كرؤية فقيدك أو ارتقائك إلى أعلى السلم
الاجتماعي كصيرورتك شيخاً على قومك. لقد تمادى عليه
الكابوس حتى وصل إلى أعتى ما تعاديه النفس البشرية ، وربما في
هذه الحالة لن يُنسى.

جمعان السبيعي من قبلية الزكور القاطنين في بلدة الخرمة ،
رجل أعزب في السابعة والعشرين من عمره وعندما يُسأل عن سبب
تأخيره للزواج؛ يعلل بأن زمنه ليس كما كان - ربما يعزى الأصل
في هذه التعميم العمري للزواج لمن هم في الثامنة عشر وأدنى؛ هو
نسيان البشر آنذاك لمفهوم المراهقة بل رفضهم لها ، والتاريخ يشيد
بفتيان في عمر الزهور حققوا المكاسب العظيمة رغم صغر سنهم ،

مثل أسامة بن زيد الذي ولاه النبي زمام قيادة جيش في غزوة الروم من السنة الهجرية الحادية عشرة، وكان فقط في الثامنة عشرة من عمره وقد انجز منجزات مهيبة - أما وصفه فكان قمحي اللون لأصوله العربية العاربة، ولطالما فاقت أحلامه الرقعة الجغرافية القاحلة القاطن بها، يعمل في سلك الحرس الملكي برتبة وكيل رقيب وهو السلك المسؤول عن حراسة العائلة الملكية وحاشيتهم، وكان من المعتاد لأسرته من أبيه وأمه وإخوته استقباله بتفانٍ في الإجازات الممنوحة له سنوياً، لذلك كان يكد نفسه في الترحال سنوياً من مدينة الرياض إلى بلدة الخرمة بسيارته الرفيعة التي اصطاحت عليها العامة بالبهبهاني- جمس رفيع من غماره واحدة وحوض فضفاض- ولعل المسافة الشديدة المدى كان يسقط ثقلها مقابل سرور وابتهاج أسرته بعودته.

كان يدخل البهجة إلى قلب كل ما عاصره، وعندما يكلم الحجر فإنه يستجيب له من قدرته ورفعته في الحديث مع العامة، كان مثلاً على الذكاء الاجتماعي البحت، ولعل رتبته الحالية كانت نتاجاً يعزى إلى هذا النبوغ الاجتماعي وليس بتقادم الزمن في عمله.

هذا الحلم سيغير مجرى التاريخ وربما حياته للأبد، للأحسن أو للأسوأ، فليست كل الأحلام عابرة وربما السعي خلفها يعزز من وقوعها وعلى هذا بعض الأحلام يجب دفنها ولو تبارى حُسنها!

اليوم هو اليوم الموعود، تزامن العبوس مع إجازة العساكر السنوية، كابوس خبيثٌ ورحلة بقية ستأخذ منه ثماني ساعات عجاف. استفاق من صحوته وتوجه إلى دورة المياه للاغتسال وما زال الحلم لاصقاً بذهنه يأخذ به يمنةً ويسرة، يحاول نسيان حلمه البغيض.

في صدد هذه الملحمة الذهنية وإذا بزميله في السكن يدفع بنفسه مع الباب حاملاً معه كيساً من الإفطار وكوبين من حليب الشاي، قعدا وجهاً لوجه وبدأ بتناول الأكل، محسن صديقه القريب وزميله الكريم لطالما دفع مكارم نفسه وأظهر خصلة الكرم التي يتميز بها الخلف الأعراب بالتكفل بالفطور أكثر الأيام وصده لأي امرئٍ يحاول الحلول مكانه بالمكرمة؛ يتعجب من انحطاط سجية رفيق السكن وزميل العمل اليوم تحت العادة، خلقه الذي أظهر عليه هيئة المكشّر وصمته المستمر، سألته عن مغزى ضيقته اليوم، فرد:

- حلم، حلمٌ لم أرَ بمثيله شيئاً.
- إذا كان حلماً مهيباً فلا تتطرق به، ولكن السعادة لا تأتي إلا مع حلم سليم، وأنا لا أراها فيك اليوم.
- حلمت بحلم يحرم سماعه، لقد تراءى لي حلم على ما وصفتُ الآن، إنه خيال فوق كل التصورات.

- لعلك بحاجة لاستشارة مفسر أحلام، لأن حلمك يتراءى لي أنه تخطيطات لا معنى لها تحصل لعامة البشر، ولكن لا بأس بالتحقق منه للخاطر، ربما يكون له معنى حسن، وقد لا يكون له معنى سوى حلم عابر، وعلى كل حال ذكّر لي مفسر أحلام يقبع في حي أم الحمام وهو قريب منا، يلقب بالمامون وقد سيّر لي بكثير من مراجعيه أنه كشف معجزات وأزال عقبات وحقق آمنيات، ولعله يقدر على كشف هاجسك المتخبط.

- سأمّرّه اليوم مع مسيرتي نحو الخرمة، فالحي لا يبعد كثيراً ولا يتعب قوياً، وستكون هذه أول مرة لي أخوض في خضم عالم التفسير. مع أن وصفك لهذا الرجل كأنك تصف لي كاهناً أو عرافاً، المقابلة بيننا ستكشف المجهول وتبين المعروف. فمن صدق كاهناً فلقد كفر بملة محمد، ولا أرغب بالتجرؤ على هذا الحد.

بعد أن تأكدت رغبته في مقابلة مفسر الأحلام رغم ترده البسيط؛ قرر جمع ثيابه ومستلزماته من ملابس وأغراض، والأهم أشمعة من قماش دم الغزال التي أهديت له من أقارب وزملاء له، للتوجه إلى أهله في منقطته الأم وما زال مصراً على المرور بمفسر الأحلام، الذي ستكون استشارته سريعة لا تترقي لاستشارة طبيب الحداثة الذي يأخذ منك ربحاً من الزمن لِعلة التحليل والكشف.

بعد مرور ساعات على الفطور، غدا الوقت الآن الثالثة عصراً، لم يعطه زميله الكثير من التفاصيل حول موقع المفسر بالتحديد وما

حوله من معالم تدل عليه، ولكن شهرة المامون تغطي على من يجهله، فهو أشهر مفسر في زمانه، وأعلم الناس بخفايا وأسرار الأحلام، لذا كان من المسلّم به أن يُذاع صيته في المعمورة.

بعد جولة خفيفة حول الحي السكاني في درجة حرارة كل يوم تتصاعد لحلول موسم الصيف، سأل أحد المارة عن المفسر:

- أتيت لرجل سؤوق لي أنه ماهر في قراءة الأحلام العويصة، ويدعى بالمامون.

- المامون، نعم، رجل فاق مكانه وعلا زمانه بعرق جبينه، تجد منزله يقبع في شارع المنصورة.

- أمّن علامات تدل على منزل المامون؟

- المامون يعرفه الجاهل ويراه الأعمى، يسمعه الأصم ويتحدث عنه الأبكم.

غدا حائراً من كلام الرجل الغامض والذي يتبادر في الذهن للوهلة الأولى أنه شعر، لم تكن إجابة الرجل كافية ووافية، رغم ذلك كان عليه تقبل شعر الرجل الواهي، والتوجه للمكان هذا لعله يجد منزله. وفي لطف يقارب العشرة دقائق فإذا به يصل لشارع المنصورة، ولكن لا دليل مادي على وجوديته، لقد بدأ في التشكيك في حقيقة هذا الرجل الذي ربما يكون أسطورة لا وجود لها، ولكنه أصر على صحة تواجده، مسبباً ذلك إلى صديقه، وما دام أن الشائعات من طرفه إذًا هي حقائق.

أوقف سيارته عتيقةً زمانه وبدأ بتلويح نظره يمنةً ويسرةً لعله يلمح لوحة تؤثّرهُ إلى مكان البيت، وما زال موقعه مجهولاً بالنسبة له. توارى لذهنه أن الرجل هذا قد لا يكون موجوداً في هذه المنطقة في الأصل، ولكن قرر الذهاب والإياب حول الشارع المذكور لعله يجد منزله الخرافي.

ردحاً من الزمن ولّى، حتى اعتزم على طرق أول باب والسؤال عن مقبع المامون، جذبه بيت يدل على أن صاحبه رب أسرة، طرق الباب طرقتين، فالثالثة كانت طرقة حاسمة لاستجابة المالك:

- أتيت للسؤال عن بيت المامون، فهل لك علم به؟

- لا أعلم عنه شيء، ولكن إذا أردت موقع بيت مفسر الأحلام

فهو بالزقاق الأخير من حجاجك الأيسر.

تعجب من سمعته وشهرته، فحتى جاهله أصبح عارفه في لُطفٍ من الزمن، وكأنه تبرأ إليه وأطلعهُ على شخصه. تقبل في النهاية تعليقه وقرر الانصراف وشكره، والذهاب نحو الإحداثية المستجدة - وهو يردد بنفسه أنه تأخر على موعد سفره وترحاله - بعجلة حادة.

عندما أقترَب نحو الزقاق وإذا برجل على عصاً يتحرك بخُطى
ركيكةٍ وحذرةٍ في جانب الرصيف، عندما لمحهُ، أدرك أنه
كفيف، استوعب أن هناك تعرجاً في الرصيف وقد يتأثر الكفيف
ويسقط، لذا هرع نحو الكفيف لإنجاده:

- يا عم، طريقك الذي تسير عليه فيه من التعثر قد يجعلك
تسقط على جبينك.

- أهلاً يا هذا، ظننت أن عصاي تبصر أكثر مني، لكنها
أصبحت فجأة لا تقي بحاجتي لتحسس المخاطر، دلني علي ما رأيت
ولك نصيب ما تبتغي.

استغل مساعدة الكفيف في طرح طلب حول بيت المؤول، لعله
يستحصل من هذا الطاعن في السن ما يفيد:

- تظهر عليك علامات الخبرة، وأظن أنك تعرف بما يهوي هنا
من أخبار، فهل سمعت عن المامون من قبل؟

- لم أره بحياتي بسخرية الطبع، ولكن في الحقيقة المامون
رجل ظهرت عليه علامات الكبر والنبوغ، عالم في علم الأحلام
وقارئ للطلائع والأسرار، عندما تراه كأنك ترى شخصاً قد رأيته
من قبل.

- ولكن يا عم، إذ لم تره كيف وصفته كأنك تراه؟

- العمى عمى القلوب لا الأبصار، فرجل في ريحان شبابه وعز
جذعه يجب أن يدرك هذه الواقعة من الآن فصاعداً.

- حسنا ، أين يقع منزله ، سُوِّق لي أنه بين هذا الزقاق - مشيراً
بأصبعه متناسياً حالة الشائب الكفيف - ولكن مع ذلك هبّ
الأعمى لتصحيحه والقول:

- ليس الزقاق بذاته وإنما ما بعد أخذود الطريق تتحو يساراً
وستلمح منزله كما ألمحه بقلبي.

شكره وذهب مع الوصف الجديد إلى الأخدود المتهالك.
سار بين الزقاق الغريب ، وإذا بشخص غليظ الصوت يسأل:
- أنت يا رجل ، هل يتساوى الغني بالفقير؟

كأنما صُفِّع على خده بسماعه لهذا الصوت الرجيم ، في عتمة
الزقاق وهدوء الكلام وانعدام النوافذ يصدر هذا الصوت مع
جملتين مفاجئتين من اللامكان ، تبادر في ذهنه أن شخصاً ما كان
يتتصت له وربما يكون أحد السكان الطاعن في السن ، الذي
طالت عليه السنين حتى أشابت حنجرته.

لم يطل الصمت حتى رد عليه:

- تساؤ في ماذا؟

- لو أعطاك شخصاً ١٠٠ ريالاً، وعلمت أنه من أعيان المتجمع

الأغنياء، هل ستشكره؟

- نعم!

- كم تساوي المئة من نصيبه الكلي؟ إن من تشكره على

كرمه، لم يعطك إلا الفتات الزهيد، لأنه لن يخسر مثقال ذرة من
نعمه الزائلة.

- وهل يختلف العطاء حسب الشخص؟

- نعم في كل الأحوال، الغني والفقير خصيمان في الأرض

والآخرة. إن الغني اذا تكلم بكذب؛ صدقوه وقالوا ما نطقت
المحال، أما الفقير إذا أصاب قالوا لم يصب وكذبوه ضلالاً.
الدراهم يا رجل تكسو الرجال مهابة وجلالة.

- ومن قال أن الغناء في حيازة الدراهم، بل هي اللسان لمن أراد

الفصاحة، وهي السلاح لمن أراد القتال.

- الفصاحة بلا درهمين لا تجعل شففا المرء مكاناً للقول،

الفصحاء لا يستمعون إلا لصاحب الجود الذي يكرم من يجالسه.

جداً ونزعة رجل كهل وشاب متحمس. عمّ الصمت فوراً بعد

خاتمة كبير السن. أما الخطر الداهم فكان عنجهية علوقه في

الأخدود!

إن جداله مع الرجل ذو الصوت الأجش كان طويلاً لبطء الكهل في الكلام وتردد الشاب في الردود والتأني فيها ، لقد أخذ ردها من الزمن لا يعلمه أحد ، ولكنه بالتأكيد وقت يسمح بمرور الشاب للرصيف الآخر غير أنه لم يصل لنهاية النقطة ، مع أنه كان يمشي بخطوات فضفاضة سريعة تجعله يقطع هذا الزقاق في ثوانٍ. أن ما حصل كان لا تفسير له.

وصل أخيراً للجانب الآخر فور انتهاء النقاش الحاد ، وكأنه علق في دوارة منعته من الخروج حتى ينتهي صاحب الصوت الأجش حديثه.

بدأ يعاقب نفسه من الداخل عن سبب عدمية شعوره بثقل الزمن وهو يجادل الكهل ، جازماً بأنه كان يرى الطريق ، ولكنه لا يتذكر سبب تأخيره في الوصول! أكان أحد الطرفين يتلاعب بعقل الآخر؟

لم تطل معاتبة النفس حتى أزال غمته وأصر على التوجه نحو المامون وتمنى لو أنه لم يحلم ، ومع ذلك دبّ في سيره إلى معروف زمانه.

على الرصيف وبعد موجة من الأسئلة الحائرة في عقله ، قرر مناداة إحدى المارات من النسوة لكي تشير له عن منزل منكور زمانه ، لعل نسوة المنصورة أعقل من رجالها.

- عذرا يا آنسة ، أين يسكن المامون؟

كان السؤال هنا مختزلاً وبدون توضيح للمخاطبة؛ لعلمه بذيوع صيت المؤول.

مع ذلك لا يبدو عليها أي علامات استجابة. وفي لحظة التفتت عليه بدون قصد، وكان يظن أن الالتفات منها كان مقصوداً، لهذا قعد متلهفاً لردها عليه، ولكن لا حياة لمن تنادي.

حاول إعادة السؤال لعله يلتمس إجابة، ظناً منه أنها لم تلتقط السؤال:

- منزل المامون، هل تعرفين أي يقبع؟

وفي لحظة عامرة بالسكينة وتحديق مطول مع امرأة مغطاة بالكامل بالسواد من قدمها حتى رأسها، كان مربوط الغرابة فيها أنها لا ترد على طوفان الأسئلة.

كل شيء تغير بعد أن أظهرت كتيباً ملصوق به قلم، يتوارى لوهلة أنها ستكتب شيئاً طارئاً وهذا حقاً ما حدث، أخذت ردحاً من الزمن حتى سلمت الكتيب إلى القارئ، فقراً:

- من أختك الصماء والبكماء، لا تؤاخذني إذا تبرأ عليك تجاهلي لك. فاسأل ما تبتغي.

- يكتب التالي لها: لا بأس فأنا من يجب عليه لبس ملابس العذر، ولتقليل الكلام عليك؛ هل سمعتي مسبقاً عن المامون، وأين منزله في هذا الحي؟

- ردت عليه بالمكتوب الآتي: مفسر الأحلام الشهير، نعم،
لطالما أرسلت له رسائل عن أحلامي حتى يؤولها، والمقابل أجر زهيد
على كل حلم، أما عن مكانه، أنما تجده على حجاجك الأيسر -
التفت على يساره للتأكد - ولون منزله أحمر غامق، ولكن الزمن
سرق بريقه واضعف صبغته حتى صار خافتاً.
شكرها على حسن كتابتها، ولباقة كلامها المكتوب،
وكان امتنانه أن رفع إشارة السلام بكف اليد.

أنطلق أخيراً وخطا خطوات المستبشر حتى وصل لقعر منزل
المفسر وطرق الباب ولا مستجيب له. الذي لم ينتبه له أن الشمس
دخلت مرحلة الشفق واقترب الغسق الذي سيحل معه الليل الدامس،
لم يشغل باله بسرعة الزمن الجارحة، والوقت القاطع، وإنما أراد
الانتهاء من هذا الحلم وتفسيره والترحال لعائلته وسنده في بلده.
بعد مضيء وقت ضيق، لم يجد مجيباً لذا ذهب لإتمام صلاة
المغرب في مسجد شارع الأربعين والقريب من منطقة المنصورة،
وكان قد صلى الظهر والعصر في جوامع مختلفة نظراً للدلالة التي
كانوا يدلونه من مناطق مختلفة.

أنهى الصلاة في الصف الأول من الجماعة ثم حلق عينيه يمناً
ويسرة، حيث الإمام أمامه، وبدأ بالتسبيح والخشوع في الأذكار،
لقد تزامنت الالتفاتة مع استحضاره لذكريات أوصاف من يبحث

عنه حتى يفسر حلمه، أوصافاً أدركها من باطن الكلام مع الأعمى ذي القلب البصير، إذ كان الإمام رجلاً ملتجئاً بلحية بيضاء تعطيه مظهر الوقار والنبوغ، وهو المؤذن والإمام بالجامع وخطيب يوم الجمعة. والأهم هو نمطية المظهر حيث الثوب القصير والعمامة بلا عقال فوقها، سنةٌ مصنونة.

كانت هذه العلامات الآنية كلها تدل على شخص الرجل المطلوب، لهذا انتظر حتى نهاية الأذكار والتسبيح وهو يؤكد في نفسه على أن المنكور غداً معروفاً، ونادماً على من قابلهم فلو أنهم ذكروا مؤذن جامع شارع الأربعين...

بعد مرور ربع ساعة قام الشيخ ولحق به، أشار له عن رغبة بالحديث معه:

- شيخنا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هُبْ لي أنك عليم بما تخفى الأحلام.

- وعليكم السلام، نعم، أنعم الله علينا بمعرفة خباياها. هل تملك نصّ الحلم مكتوباً؟

مع اقتراب الغسق ومبادرته بإتمام تفسير الحلم إبان تحركهما معاً، تفاجأ بأنه نسي معظم الحلم ولم يبقَ إلا الفتات:

- شيخنا، لم أكتب الحلم على ورق، وإنما غررتني نفسي بأني قادر على حفظه، وصدمت بنسيانه.

- لا بأس، فتات أجزل من لا شيء.

- لو تمنحي وقتاً لاسترجاع معظمه سأدعو لك بالخير، شيخنا.
بادر باستضافته في منزله العتيق الخالي من الحياة في خارجه:
- إذاً، اقدم على منزلي، لفنجان قهوة. لعل هذا يحمي ذاكرتك
على الاستحضار.

وافق، وهَمَّ بالدخول لبيته، ما لاحظته هو أن للبيت أوصافاً
أخرى، سقف المنزل مديد يمنع إطلالة الجيران من التحديق في أهل
المنزل، الدهانات من الداخل حية وناصعة أكثر من الصبغة خارج
المنزل، مروج يمنية ويسرة من المنزل، ربما تكون هذه من طبائع
الزهد الازدواجي؛ كن فقيراً مع الغير وغنياً مع النفس، إنصح
غيرك بالتشهد وأبناءك بالشهادة.

خارج المنزل وفي لباسه يتبين رجلٌ لا يجد زاداً يسد به ضمور
بطنه، ولكن داخل المنزل جنة خضراء؛ تذيب عقل الشاهد.
دخل لحجرة استقبال الضيوف وكانت دعاسات الأحذية وسجاد
المدخل من فخر الصناعة التركية، أما سجاد الحجرة بلجيكي
وبكل جدارة، المساند والمتكآت من عجائب الحرفة السورية.
أثناء الجلوس، ذهب المفسر لإحضار القهوة مما أتاح الفرصة
للناسي محاولة تذكر الحلم بأكمله، وفي غمرة محاولاته تذكر
أمراً خُفي عليه عندما حادث الرجل ذا الشعر الواهن على حسب ما
ظنه، وإنما بالتحديد بيت خُفي عنه، ولم يتذكره إلا الآن.

في وقت مصادفته للفصيح في أول الرحلة للبحث عن مفسر
يفسر رؤياه، أجاب عن الباحث عن إجابات ببيوت شبه شعرية،
اتضح في هذا المجلس وبعد عصف ذهني أنها كانت ثلاث أبيات
حيث الأخير رجع للحياة بعد فقدانه!

أسترجع المحادثة بينه وبين الشاعر، حيث سألته عن المؤول وشهد
له بالعرفان من الجاهل، والإبصار من الأعمى، والسمع من الأصم،
حتى أكد على قدرة الأبيكم على محادثته، أما اللغز الناقص
والبيت المحرّم هو: ومن قاسمهم ضمنوا حلمه الأعتى!

ذكرى دارت رحاها في مجلس عتيق محجوب عن العالم
الخارجي. كان اليوم بأكمله منذ الظهيرة حتى الشفق مليئاً
بالصعاب والناس العجاب، تجعل المرء يحيد برأيه عن كان ما
يخطط لنفسه مسبقاً، وهذا ما فعله؛ اضطر للعود في المجلس وقاراً
للشيخ حتى يسقيه القهوة ويرتحل لأهله.

طال بقاؤه في الحجرة الفاخرة حتى جاء الفرج أخيراً، همّ الشيخ
بالدخول معه ماعون قهوة وشاي، الشاي كانت إضافة يضيفها
صاحب النزل للإشارة على كرم المضيف لضيفه، وقدم الشيخ
فنجان القهوة:

- تفضل، وابدأ بطرح حلمك، والله الموفق.

لم يفقه في بادئ الأمر مغزى الجملة المحرّمة، وعلى كل حال
فلقد نسى معظم الكابوس حتى اختفت معالمه واضمحلت ميوله

لتأويل الرؤية ، وإنما فاجأه المفسر بالمبادرة ليعجل من إقامة زبونه لغرض التفسير، وأيضاً لكسب لقمة عيشه من تأويل الأحلام. لم يذكر للمؤول قط الحلم على الإطلاق؛ وإنما أتخذ من الهرب طريقاً قوياً له. إن الكذب عادة سيئة محرمة ، ولكن قد تفلح إذا كانت كذبة بيضاء.

- شيخنا ، إن حلمي من أحلام العامة البسيطة.

- أذكره لي.

كما صار في بداية دخوله المجلس ، سقط عنه معظم الحلم حتى لم يتذكر منه سوى كونه حلماً سيئاً.

- حلمتُ أني أغنى من في قريتي ، ونصبوني إماماً لطغيان ثروتي على الجموع من الجمهور ، وإذا بي أخلف نمروداً بالحكم وسليمان بالجن.

قرر تبسيط الحلم وتقديم حلمٍ بديلٍ يحلم هو به ، لظالما حلم هو بحلم كهذا رغم أنه لم يتوار له في أحلامه حلم شبيه بما يتمنى ويتوجس.

- نعم ، ستكتشف كنزاً في مسقط رأسك ، كنزاً يجعلك أنت ومن يخلفك أغنى أغنياء الدنيا. والله أعلم.

- جُزيت خيراً ، أتمنى من الله عز وجل أن يقبل منطوقك ، لكن أظنه حلمٌ عابرٌ، مثله مثل أحلام ماتت هي وأصحابها.

- الحلم يموت صاحبه قبل أوانه، العمر هو العدو اللدود
للأحلام؛ لو عشنا لمئات السنين لتحققت أعتى الأحلام تحقيقاً،
ولكن الموت أسرع من الحلم، على هذا الأساس لا تستبعد تحققه
له، فقد يركض لك الحلم أسرع من الموت!

- لا أعلم، ولكن أنا ممتن على هذه الجلسة ولا أرغب بالإطالة
عليك، كم هي أجرتك؟
- عشر ريالات.

أعطاه عشر ريالات عليها صورة الشاعر المقدسة التي تمت
طباعتها منذ فترة قريبة في عهد جلالة الملك فيصل، وكاد أن
يرفضها بلا سبب وجيه.

الآن وبعد أن فسر المفسر الحلم المعسرَّ له، الحلم المختلق الذي
لم يحلم به في منامه، وإنما طرح حلماً عتيقاً كان يبتغيه من
صغره، حلماً لطالما أراد تحقيقه، لهذا سابق نفسه بقول الحلم غير
الموجود وترك أقذر الرؤى تموت ولا يبقى لها أثر ولا أثر.



الفصل الثاني

أحلام سخية ولكن عتية. حلم نمرود وجن سليمان أوهام تمنى لو أنها حقيقة، رغم تحفظات الحلم في أن أصحابه كانوا من جبابرة الأرض ولا مثيل لهما في تواريخ البشر جمعاء، النبي سليمان سخر له الله الجن حِكراً عليه عندما أخبروه بقدرتهم على سلب عرش بلقيس المرصع بالذهب والزمرد والمكل بكل الأحجار الكريمة.

أما نمرود طاغية أرض بابل والذي تجبر وطغاً في الأرض كمثل فرعون، فحلم كهذا صعب المنال لكون سليمان نبي مرسل وهذا امتياز لن يحصل عليه أحد، أما لو أراد التشبه بنمرود الطاغية الذي أرسل الله له ذبابة إلى منخره جعلته يضرب نفسه بالمرزبة أربع مئة عام حتى فنيته عظامه؛ فهل يتمنى الفرد عاقبة كهذه!

بعد خروجه من منزل الفقيه المؤول للأحلام، انطلق صوب بلده التي تبعد أكثر من سبع مائة كيلومتر من العاصمة، في رحلة ستأخذ منه مدة تصل إلى ثماني ساعات، من الغسق حتى الفجر.

مر على أقرب محطة تعبئة للبنزين على طريقه ليملأ خزان الوقود، ومنها يأكل وجبة لكونه لم يأكل منذ جلسة الصباح مع زميله. أوقف السيارة عند مسار التعبئة ونزل يخطو الخطى إلى مطعم يقدم وجبات الغداء، وطلب نصف دجاجة مشوية تغني صاحبها عن

ضمور البطن مع أرز على الطريقة البخارية وزجاجة سودا بتكلفة إجمالية تصل إلى سبع ريالات.

أنهى طعامه وهَلَمَّ إلى مركبته البهبهاني العتيقة طراز جمس من فخر الصناعة الأمريكية الصلبة، وانطلق بخزان وبطن ممتلئ. في إبان الرحلة بدأ يتذكر الثالوث العجاف، والجملة الأخيرة من القوافي التي انهَلَّت عليه، وهل حقاً ابتغى حلم الجبابرة، أم أن هناك أمرٌ سقط سهواً عنه؟

هواجس بدأت تتمخض في أدنى الليل وفي الساعات الأولى من الرحلة ولا جواب أو مجيب لها. من هاته الهواجس ذكرى طرأت على باله وهي نصيحة والده عن الترحال في الليل وما فيه من عيوب قاتلة. ينظر العرب ليل نظرة مغايرة، أقاويل منها ربانية ومنها شعبية مثلما قيل في الكتاب الشريف، وجعلنا الليل لباساً والنهار معاشاً، والليل صحوه وبواطن الأرض. وعموماً في مكان ما من الليل ثمة إنسان يغرق.

لا معاش في الليل للناس؛ والدليل هو أن كافة الأعمال والأرزاق وقتها الصبح.

الليل لا يعد أمراً دالاً على الخير، فكل الخدع والأمور المريبة تحدث وقته، جرائم القتل، السرقة، قطاع الطرق. حتى في قصص الأولين كان الليل وقت الحشاشين، فعندما أرسل النبي الصحابي عبدالله بن أنيس لجلب رأس خالد الهذلي كرية المنظرة، أتاه في

نهار في زي ملاك يدعي الشعر والمبايعة وحقاً كان شاعراً من شعّار
جهينة، قطع رأسه وسرى به ليلاً وفي النهار ينام لعلمه أن النهار
طريق غير محبب عندما تخالف القانون وتقطع الرؤوس، وفضل
الليل لما فيه من قبول لهاته الأفعال، والأهم لا مُبصرٍ يبصر حلقة
الغسق.

حقاً الليل لباسٌ تبيت فيه كل المخلوقات ما عدا الخبيثة منها
كالشعالب التي تتغذى على الدواجن، والذئب الجارحة التي تأكل
الأغنام، والعقارب والأفاعي التي تلسعك حتى لا تجد مخرجاً منها
غير امتصاص السم بنفسك إذا قدرت، وكافة الآفات اللائي
يفضلن الظلمة الدامسة؛ فهو وقت له خبثاؤه الخاصون وأصحابه
المتمرسون.

ما عدا الصباح ذو المعاش الذي تصحى فيه المخلوقات المعتدلة
كالطيور تهبُّ لتغذية صغارها، العصافير تزقزق في الصباح حتى
تهلّل بقدوم الصباح، والديك يصيح للتنبيه بحلول الفجر، والبلبل
يغرد ليطرب المستمعين، والحمام يهدل إشارةً إلى أنه يفضل هذا
الغصن، والبقر تنغو من الجوع، وبنو البشر إذا استوتوا؛ خروا عن
المنكرات والأفعال المشينة كالسرقة والنهب، وقطع الطريق على
المسلمين، والتعدي على أعراض الآخرين، فيكون الصباح معياراً
على راحة عقول الراشدين منهم، رجل المرور ينظم المرور وقت

الزحام إبان أوقات العمل، والأستاذ كاد أن يكون رسولاً لقيامه في الصباح والنوم يطغو عليه لكي تصل رسالته العلمية إلى طلابه.

أما بالنسبة إلى المسافر، فقد قطع مسافة ساعة من الزمن على طريق الرين المؤدي إلى مسقط رأسه، سارحاً على من حوله، هدفه هو وصوله إلى محيط منزل العائلة، وفي لحظات غامرة بالسرحان وشبه نسيان للواقع، أظهرت أنوار السيارة رجلاً يشير في جانب الطريق بيديه إلى المركبة حتى تتوقف من أجله.

إن زمن السبعينات في المملكة كان العصر الذهبي لقطاع الطرق، وكانت سمعة أهل البادية - في قطع طرق القوافل والحجاج ونهب ما لديهم - تذاع في الأرجاء، ولكن رغم السوابق والمحاذير التي لم يعر لهما اهتماماً، أصر على التوقف لعابر السبيل حتى يعرف وجهته ويقرر حينها أخذه أم لا، وعندما أنزل الزجاج يدوياً رأى رجلاً ملتج، يصعب تحديد عمره في ظلمة الليل الطامسة.

على كل حال بدأ في رمي الأسئلة عليه:

- إلى أين الوجهة؟ إن كانت على مساري الذهاب للخرمة فهل بالركوب أما لو كانت منطقة أبعد من مساري أو تخالفه بالتحريف، اعذرني على رفضي لو أبييت.

- أنا في ذاك المكان، عند الجبال، أعلى التلال، أدنى السهول. لقد غناها وكأنه يلقي شعراً جزلاً، لا حيز لشخص يلتزم بالشعر في أجوبته من الناس من أول وهلة من المقابلة أو المحادثة إلا لو ما كان شخصاً مميزاً عن البقية، حتى ملابسه الذي سيكشف عنها ضوء الشمس الفاضح، ستشهد عليه بالعقاقة، هذا مع احتمالية توطن الرجل في أقصى البادية بعيداً عن جماهير الناس وأعينهم، وربما لهاته الأسباب أصبحت مهاراته التواصلية شاذة عن البقية.

- لا أعلم مقصدك! على طريقي العديد من الجبال وجموع من السهول، هذا ونحن في الليل من المستحيل أن تستبين الجبال إلا بعد الغسق في مطلع النور وقت الفجر.

- دعني أركب معك وعندما أراه سأشير له.

- أتقصد بعد مطلع الفجر ستشير لي عليه؟

لم يجب عليه في هذا الشأن، ولا مجال للتراجع الآن، ركب غريب المنظر حاسباً أن قائد المركبة وافق على ركوبه المركبة! مع ذلك لم يبال بهذه الفظاظة محسناً الظن فيه، والعلة أنه لا يعرف

من وجهته شيئاً سوى الجبال المطموسة ليلاً، وكم من الوقت سيأخذ حتى يشير، وهل ستظهر منطقته في الليل أو في مطلع الفجر، مع افتراض ظهور أرضه في أوج الليل، أسيشير على سهله في وقتها!

مع ركوبه، أخذ شذاده الممزق الذي يكاد يتفتت من عتقه وقدمه حيث يحمل فيه أغراضه من ملابس وربما طعام أو حتى سلاح لا أحد يعلم ما به، ثم وضعه على حوضه.

لم يهمز بكلمة أو حتى يلوح بعينه يمنة ويسرة وإنما كان ثابتاً كجبل أحد، التزم بحاله حتى بادر بمحادثته رغبةً في معرفته لا أكثر، واستهل عليه:

- ما اطلعتنا عليك.

- حوقان.

- ومن أية العرب أنت؟ أمن الرشايذة أنت؟

- أنا من قبيلة يام، حوقان اليامي.

ربما الانطباع الأول عن كونه فقيراً؛ دلّ على قربهِ من الرشايذة، التي تعد من أكثر القبائل الفقيرة في الجزيرة العربية مقارنة مع من غيرها، لكون بعضهم لا يملكون الجنسية الرسمية، وعلى هذا لا يحصلون على حقوق المواطنة المكتوبة، وربما استيطانهم في الريف بدل المدن التي تعج بالحركة والحياة من أسباب فقرهم وقحطهم.

- وأين هي دياركم؟

- معقلنا هو نجران والكل عارف بذلك، ومن يجهلنا نعلمه.

كان رده الأخير من الوقاحة ولكن متوقع بتأثير من الشهامة، ولعل مكانة قبيلة يام تتساوى مع القبائل الأخرى، هذا أيضاً أن هذه القبيلة لها أقليمها الخاص في جنوب السعودية، على هذا الأصل كان من الأحسن ألا يطرح سؤالاً مبطناً بالتمطية، في حضور رجل لكيع كهذا.

الواقع يقول أن طارح السؤال يجب عليه تدارك الخطأ الجسيم والاعتذار أو مدح القبيلة كاعتذار غير مباشر، ولكن خالف الأصل وتجراً حتى طرح سؤالاً حرجاً:

- يتحدث القليل من العامة من الناس عن قبيلة يام فيما يخص المذاهب الدينية وأنا من هذه القلة وربما السبب في هذا أن المؤسس للدولة السعودية الثالثة الملك عبد العزيز عقد اتفاقاً مع قبيلة يام بألا تتدخل الدولة في مذهب القبيلة، وعلى هذا فإنهم استطاعوا التكيف مع القبائل الأخرى، والأخيرة تكيفت معهم.

- وماذا سمعت عنا؟

- قيل عنكم أنكم تسيرون وفقاً للمذهب الإسماعيلي، وقيل العكس في أنكم تخطون خطاكم على المذهب السني، فما الصحيح من القولين؟

- كلا القولين صحيح، جميعنا رجالاً ونساءً من سنيين وإسماعيليين نعبد الله وحده ولا نشرك بغيره.

- لكن، أتوقن أفعال الإسماعيليين من يام؟ فهم يتبعون المذهب الشيعي الذي ينادي بكراهية الصحابة والخلفاء الراشدين، ويرفضون أكثر الحجج السنية، مثل الصيام والصلاة والحج كم ذكرت الأحاديث الشريفة. ويحتجون بأن صلاة السنيين تشبه أصنام العرب في الجاهلية مثل العزى واللات والمناة والطاغوت وغيرهم.

- الشيعة اثنا عشر فرقة، ومما ذكرت، فهؤلاء من أصحاب نزعة التطرف.

- أي طائفة من المسلمين تخالف السنة وتقذف صحابة النبي؟
- النوع المتطرف، أما ما يخص مسائل العبادات، فلديهم حجج في أن أكثرها لم تذكر في القرآن أو في الكتب المنهجية الدقيقة، ويحتجون بالبخاري وهو بشر قد ينسى ويغفو، والأهم أنه قد يأخذ أحاديث من أناس ليسوا بمثل كفاءته العقلية، فالناس قد تحرف وتحور أحاديث وتعطيها له.
ويستكمل كلامه:

- ماذا عن قاذي الصحابة والخلفاء الراشدين، من يتهم عمر باللوطية وعائشة بالزنا مع تبرئتهما في القرآن وتبشيرهما بالجنة؟
كانت جراءة حادة أن يذكر شخصاً مواضيع حساسة كهاته، وربما أثارت غضبه كونه يرفض التعصب المذهبي، وقد اتضح انزعاجه عندما رد، بنبرة حادة غير معتادة:
- جهلة الشيعة كما قلت.

فهم مقصده وتوقف عن هذه السجلات واستمر في القيادة في صمت استمر حتى الفجر. أتى موعد الفجر ولم يهزم بمنطقة السهلية التي صورها في وصفه، قطعاً مسافة ثلاث ساعات وتعدوا جبال القويعية والنخيلان اللتين ربما يكونان محجرة، مع ذلك ربما يطمر على الخاصرة ذات الجبال الكثيفة وهو لا يزال جاهلاً

مكانه، أو في أسوأ الأحوال أن يكون مبيته أبعد من دياره، وهو في نهاية النطاق ملزم بإيصاله.

أتى موعد آذان الفجر وشاهدا محطةً على جانب الطريق، فيها مطعم ودكان وخدمة تعبئة البنزين والأهم هو المسجد، استهل في اقتراح الصلاة أولاً ثم الإفطار لاحقاً:

- نصلي ثم نخفي ضمور بطوننا بالإفطار، وقبل ذلك فالإفطار على جعبتي.

- الصلاة أمرها هين ومكتوبة علينا، أما الإفطار فأنا لا أفطر وإنما أتغدى وأتعشى، وعموماً كرمت على حسن الضيافة.

كان رده غير متوقعاً فلا يوجد أحد يرفض الطعام وخاصةً رجل نحيلُ الجسد ، عظام وجهه تكاد تبين خلفاً على نسبة الدهون الضئيلة في جسده ، مع ذلك رفضُ المكرمة يعد عيباً عند القبائل ونقصان على المضيف إذا رفض أحد زاده:

- لن اسمح لك بالمضيء بدون طعام ، ومكاننا يبعد ثلاث ساعات ، هذا وربما أنك تبعد أكثر من ذلك ، وعليّ دينٌ بألا تذهب أنت إلا وقد أكرمتك ، وبدونك لن آكل ولا صاعاً من الزاد ، فهلُمّ معي على المسجد وبعدها على الفؤال.

- هذا من كرمك ، وأعانني الله على رد الجميل.

دخلا المسجد وقعدا في الصف الأول ، وإذا بأحد العمالة يقيم الإقامة ويختمها... لا إله إلا الله ، عند الانتهاء نظر لرفيقه الواهن بنظرة تقليدية يُقصد من هذه النظرة عموماً في كافة الأحوال أن يكون المنظور إليه في هذا المشهد إماماً على المصلين - وهذا ما حدث فعلاً - يصلي بهم ركعتي الفجر ، كبر واستهل الترتيل في سورة الأنعام كاملة في الركعة الأولى أما الثانية كانت سورة الجن - إذ يتعجب المرء كيف لرجل بسيط وبدائي المظهر وقليل العلم ، أن يحفظ سوراً كاملة ويلقيها - كانت قراءته ترتيلةً بشدة وبسببها أطيلت الصلاة فوق العادة ، وإطالة الصلاة ليست فعلاً مكروهاً إلا عندما تكون في رديح ومكانٍ أصحابه عجلون في أمرٍ لا صبر عليه

بمثيل من لديه عمل وسفر وكلُّ بظرفه ، فالدين يسرٌ وليس عسرًا
على الجماعة.

رتّل الإمام سورة الجن كاملة وعندما كان في بداية الآيتين من
سورة الجن:

فقال في الآية الأولى: قل أُوحيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَسْتَمِعُ نَفَرَ مِّنَ الْجِنِّ
فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قِرَاءًا عَجَبًا - وخرج القارئ عن سورة الجن ثم قال
إِنَّا حَقًّا سَمِعْنَا الْعَجَب!

رجع إلى سورة الجن بعد أن سها عن الترتيل حتى وصل إلى الآية
الثانية الناصة على: يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا
- ثم يؤكد الإمام خروجه عن الآية بقوله، إنه الله لا إله إلا هو!

من اللامكان يخرج رجلٌ مجهول الهوية بصوت كهل يقاطع
المشهد بتفسير ما حدث، حيث يطرح تعليلاً بسيطاً لمن جهل الواقعة.
يروى هذا المسن حكاية قصيرة عن سورة الجن التي نزلت على من
عُنُونِ اسمهم في السورة ذاتها، حاولت الشياطين في زمن النبوة
تجسير السمع بين أسرار السماء وبينهم؛ فأرسل لهم المولى شهاباً
حال دون استراق السمع منهم، حتى رجعوا مدبرين إلى أقوامهم
وتعجبوا من الفاعل، بعدها أُمرُوا بالانصراف في مشارق ومغارب
الأرض بحثاً عن السبب، حتى وصلوا إلى سوق عكاظ وإذا بهم
يجدون النبي يصلي الفجر بالمسلمين، وتعجبوا من القرآن؛ فقالوا:
إنا سمعنا قرآنا عجَبًا، وآمنا به.

أنهى الصلاة وقام يصلي ركعتي التسنن، وعيون المصلين عليه أينما يذهب من قيامه وجلوسه حتى خروجه من المسجد؛ لأنهم لم يعرفوا شخصاً خرج من ترتيل الآيات ونطق بغير كلام الله إلا هذا الرجل، فالبعض ظنوا أنه تأثر من الآيات وسقط سهواً حتى أنجرف في طريقٍ أعرجٍ أغاضه عن الترتيل الصحيح - مع أنه أخطأ مرتين - والبعض حسبوا أنه ليس من متبعي مذهب السنة، وآخرون شكوا في ظهور بدعة جديدة في جزيرة العرب.

كان من يقله من الفئة الأولى الظانين بتأثر الإمام، فسأله بعد خروجهما من المسجد:

- أتضحت عليك علامات الحزن في كلماتك، بعضٌ يعبر بحزنه بثلاث طرقٍ، الأول بيديه وهذا أضعفهم لقلة الحجة، والثاني بلسانه وهو أشجعهم لفصاحته، والثالث بقلبه وهو أخطرهم؛ فهو من يحمل الضغينة لك أجيالاً خلف أجيالٍ كمثل العداوة التي شُحنت على قرابة ٢٦ عاماً من بني كنعان على يهود إسرائيل الغزاة والمحتلين عندما أسسوا دولتهم الواهية. الناس تموت أما الأفكار تبقى. وعلى هذا فأنا كنت أفضل لو أخفيت تأثرك؛ حتى لا تدخل في دوامة التشكيك التي تهوي بك إلى التكفير من العامة وتجد أشخاصاً يلتمسون لك العذر مثلي وآخرين يلتمسون لك الشر.

- لم أقدر على ذلك، هذا أمر جُبلنا عليه من عصور.

انتهى النقاش هنا ، وتوجهها إلى المطعم على وعيد التفطير،
لكن أصر هو الأخير على طلب بسيط وهو أن يفطر لوحده بعيداً
عن الأنظار:

- بما أنك تكلفت على نفسك وجبة الإفطار، وجبرتني عليها
وأنا لست من محبيها، على أقل المطالب؛ اسمح لي بالإفطار
بمفردتي، ولا أقصد الفضاظة من البعد عنك؛ وإنما لي أسبابي.
- لا أقدر على ردك عن طلبك، لكن عدني بأنك ستتهي
إفطارك.

- سأنهيه ولو بعد حين، أغدقت عليّ بكرمك وأعانني الله على
رده لك.

كان هذا الحديث سابقاً لطلب الطعام، بعدها طلبا صاعين من
الفول وقطعتين من الخبز المقمر، اخذ صاع الخبز وصحن الفول
الخاصتان به وخرج من المطعم حتى شك الآخر أن هذه ستكون آخر
لحظة بينهما.

قبل أن يستلم هو طلبه قرر جسّ النظر عليه حتى يتأكد من نيته في أكل الطعام وفعلاً حدث المتوقع عندما رمى الطعام على الأرض ليأكله رهطُ كلابٍ أمامه، ولم يكتفِ بذلك، حيث أقدم على نهب عظام كانت تعضها الكلاب ووضعها في شداده.

وكان من العجيب أن شاهد معه فرداً آخر على شبيّهته وهيئته، رجل قديم الملبس وكثيف اللحية، وتظهر عليه علامات الهوان، يجادله وكأنه يعاتبه على سرقة عظام الكلاب.

شح بنظره من موقع الواقعة مصدوماً من هذا السلوك الغريب ورجع المطعم مرة أخرى حتى يتسلم طعامه ولم يطل في إنهائه، فغسل يديه وخرج من المطعم أخيراً.

تفاجأ أمام عينيه بوجود من راقبهما مسبقاً؛ تصنع عدم معرفته بالواقعة الشاذة بأنه لم يأكل طعامه إضافةً على نهبه عظاماً لا غرض منها كانت تعضها الكلاب الجائرة وربما المسعورة!

امسك بيده من كان يعاتب رفيقه فيما مضى، ونصحه بأن يأخذ حذره ممن يصاحب، فقرن الشيطان يغطي النقطة في نهاية المطاف. وعندما ولى ظهره، سقطت منه قلادة مرصعة بالمرجان، حاول اللحاق به داخل المسجد، وعندما دخل عليه، لم يجد سوى ملابسه العفنة المتراكمة فوق بعضها.

رميُ الطعام كانت خسارة مالية لا أكثر على صاحب المكرمة
وكرمًا لا يقدره الضيف المكرم، لكن سرقة العظام النتنة أمر
أكثرُ جنونًا فلا أسباب تفسر أفعالاً كهذه على الإطلاق!
مرًا سووية موقع الطعام المهذور ووجداه أُكِلَ من الحيوانات
المشردة، على الأقل أجرُّ هُدِرَ على الحيوانات. كان على السوي
بينهما قطع الشك باليقين بما سيفعل الآخر بهذه العظام، طلب من
حامل العظام عندما رجعا إلا المركبة أن يحضر هو الأخير إناء الماء
بسعة ١٦ لترًا للطريق حتى يغنيهم عن مشقة البحث عن الماء
وينجيهم من العطش.

كانت الخطة موفقة عندما وافق هو على جلبه، ولكنه تغافل
ونسى شداده في المرتبة الجانبية وهلع نفسه إلى الدكان ليحضر ما
طُلبَ منه.

الآن أُتِيحت الفرصة للتقريب عن أغراضه ومعرفة الخبايا، فتح
الشداد ووجد العظام متناثرة، بعضها قديم حيث أُكِلَت أجزاءه وما
زالت عليه آثار الأنياب العاتية التي ربما تكون من فعل حيوان، أما
عظام اليوم فكانت حديثة، إنه حقًا منظر مريب!

تعمق في التفتيش والزمن يحاربه، حتى وجد دفترًا، فتحه ثم
كشف عن كتابات بلغة ليست عربية، ورسومات من أساطير
الأولين عليها مخلوقات بشعة، قلب الصفحات فوقع على خريطة تدل
إلى شيء اصطلح على تسميته بمنطقة الدويحي التاريخية حيث

كتب بالعربية فلم يقدر على استيعاب مضمون الخريطة ، غير أنها تدل على أمر لا يفقهه ، أخيراً تيقن أن الرجل الذي معه ساحرٌ وقد يضره ، حيث العظام الشبه المأكولة من غير البشر محملةٌ في شداده ، ودفتر عليه كتابات وكأنها طلاس خبيثة ، وخريطة مجهولة.

الآن على ناصية الطريق مرت دزيتان من الدقائق منذ هروبه من المحطة على طريق مكة ، حيث إنّ مفرقَ الخرمة اقترب منه؛ وهذا سيغير اتجاه الطريق ، وسيجلب الراحة للراكب لعلمه أنه قطع شوطاً طويلاً عن المحطة ، إنما المشكلة التي لم تطرأ على باله أنه قال لجلاده المحتمل ، موقع منزل عائلته ، لكنه لم يُعر في تلك اللحظة حين وقت الهروب للمشكلة أية خاتمة.



الفصل الثالث

الآن على مفرق الطريق الذي سيهوي به إلى مسقط رأسه حيث
تقبع عائلته هناك، وإنما الآن قد بُعد عن صاحب الشداد مسافةً
معقولةً، وحن الوقت للبحث عن إناء ماء بديل عما سبقه بعدما
فضّل سلامته، وهذا هو الأصل في كافة الأمور.

بعد ربح من الزمن، لمح محطة على ناصية الطريق، فتوقف
حيث تتوفر فيها التموينات المستمرة، دخل الدكان حتى يحصل
على مبتغاه وقرر أخذ الإناء الذي تولى عنها مسبقاً لينجو من
محنته، ورجع إلى سيارته، وعندما ركب إذا برجل يطرق عليه
زجاج النافذة من جهة قائد المركبة:

- السلام عليكم، أنا عابر سبيل تقطعت علي سبر السفر ولم
أجد من ينجيني.

عابر سبيل آخر ولكن بشكل راقٍ لا يجلب الريبة، شماغٌ من
طراز دم الغزال، ثوبٌ الطهارة فيه تطفئ على العتاقة والنجاسة،
والأهم هو كلامٌ رزين يبعد الشبهة عنه، حيث يقنع المصغي له بأنه
رجلٌ محترم لا يؤذي حتى البعوضة.

- أين هي وجهتك؟

- الخرمة.

أبعد الشداد وأزاح عنه إناء الماء ووضعها في الوسط بينهما،
وعندما ركب الراكب أشدت ناظره على الشداد وكأنه يعرف
أمراً يخفى على الكل، ولم يقاوم الضيف نفسه حتى سأل عنه:
- إن هذا شداد قديمٌ نديم، وأنت رجل رزينٌ قويم، كيف
وصلت إلى هذه الحالة التعيسة؟ أظنك قابلت الأشخاصَ الخطأ في
حياتك، كل ما أخبروك به ربما يكون مخالفاً لمنطق الحياة.
رجل فضوليٌّ ووغدٌ كما ظنّه، كانت تدخلاتٍ عمياء منه في
أمر لا تخصه، ولقد كانت شخصيته مناقضة لقريته عابر السبيل
الماضي الذي لم يسأل المصغي له حتى عن مذهبه، وعلى هذا رد
عليه بنبرة حادة:

- ليس من شأنك، أخذتك معي رفقاُ بك، ولكن هذا لا يعطيك
الحق أبداً للتدخل بتفاصيل الأمور، فهل رأيتني أسأل عن سبب
مجيئك لهذه المحطة؟ وعن اسمك؟ أو عن حادثة لبسك؟ والأهم عن
وجود رجل في مظهر متألق بدون سيارة تهوي به إلى أين يبتغي؟ يا
رجل إن تواجدك في هذا الزمان والمكان على مظهر متكامل في
محطة متهالكة يثير الريبة، ولكن التمس لأخيك المسلم سبعين
عذراً.

- اسمي مرجان اليامي، ولكن إن لم أكن مسلماً - مع نبرة
ضاحكة خبيثة - هل ستلتمس لي عذراً؟

لقد كان سينفجر عليه غاضباً بسبب سوء سجيته ولكن في رمشة عين، صدمة دابة من الإبل الجائرة، وكل شيء أنطفأ كلياً في عيني الراكبين، ولحسن حظه لم يكن انطفاءً يرفع بصاحبه إلى الفردوس الأعلى أو يهوي به إلى جهنم في نهر اللعنة المميت.

صحا صحوه مؤقتة فوجد الناقة - في وسط الجيب الرفيع - ترفس آخر أنفاسها، إنما واحد منهما لم تنطفأ عينيه بل كان في صراحة وعلى ما يرام، حيث ينتزع العظام منها ويأكلها من بطن الدابة الحية المسكينة، في مشهد لا يحصل إلا في غابة حيث الأسود مفترسون والغزلان فرائس! إنما ما وجده كان كفيلاً بأن يسبب له نوبة هلع تفقده عن الوعي نهائياً.

صحا في مستشفى عتيق متهالك في قرية الحفيرة وهي منطقة أصغر من القرية، قريبة من الخرمة التي لا تبعد إلا ساعة ونصف من الحفيرة، وجد نفسه في سرير في غرفة ضخمة كل سرائرها خالية، حيث الشاش يغطي بعض أعضائه، واللصقات الطبية محطوطة على ندب في وجهه في أماكن تمت خياطتها، لقد كان لوحده حيث الشداد لم تكن معه ولا صاحبه الذي التقاه في المحطة فأخذه معه نخوة، كان في حالة شبه فقدان للذاكرة، حتى ظن أن الراكب الذي كان معه ربما يكون قد توفاه الله.

ارتاب من الوضع الحالي حتى حاول النهوض للبحث عن الشداد ورفيقه سيء الخلق، وعما حدث ما بعد الحادثة، لكن لم يستطع

النهوض من آثار الحادث المميت الذي لم يُمت صاحبه، فمن حسن حظه أن الإصابة لم تُصِبْهُ بِأَفْءٍ مميتة تشله عن الحركة أو في أسوأ الأحوال تقتله. إنها معجزة أن ينجو الإنسان بمثل حادث كهذا! في فترة توجسه وتذكره لذكرى الحادث المريب، لم يقدر على تذكر أي أمر سوى آخر لحظة من الحادث عندما وقعت الواقعة وكان غاضباً من الراكب المعتوه، وفي أثناء التذكر دخل عليه الطبيب مع الممرضة ليطمئن على مريضه في نوبة عمله:

- السلام عليكم، كيف تشعر الآن؟

- لا أعلم ما أخبرك به، ولكن هل إصاباتي خطيرة؟

- لم تظهر التحليلات والأشعة السينية أية أضرارٍ مستديمة، كل ما تعاني منه هو شعرة في معصمي اليدين ورضوضٌ موزعة على كافة الجسم، سنصرف لك مورفين لتخفيف الآلام وتخرج حسب حالتك عندما نقرر ذلك.

- أنا ممتن لك يا...يا...

- الدكتور مصطفى الكرامة.

- دكتور مصطفى، عندما وقعت الواقعة، كان معي شخص حملته معي من محطة تعبئة البنزين، اسمه... لا أتذكر اسمه الأول لقد كان من قبيلة يام، رجلٌ حُسن المنظر...

- يا أخ جمعان، تقريرُ الحادثِ لم يذكر وجودَ أحدٍ معك، ربما هذه من آثارِ الحادثة، فقدانُ جزئيٍّ للذاكرة واضطرابٌ ما بعد الصدمة.

- لا أعلم ما حدث، حتى أنه كان معي شداً فيه أغراضٌ خاصة.

- حسب تقرير الحادث، صدمتَ جملاً ومن حسن حظك كان حُواراً وسيارتك رفيعة سمحت لك بالنجاة، وبُعدُ الضرر عن أجزاءك الحساسة. على أية حال ما ذكرت أنفاً يزيد من تيقني في أفضلية بقاءك حتى غداً لتتأكد من أعراض فقدان الذاكرة الجزئي.

- ماذا عن أغراضي؟

- تقصد شنطة الملابس؟ أنها في الخزانة على اليمين، لا شيء آخر. استرح قليلاً.

كانت نجاته أعجوبةً من عجائب الدنيا ولكن مقدرة لصغر حجم الجمل وارتفاع قامته المركبة الحمراء المدججة بالحديد الصلب القاسي، وعلى هذا استطاع النجاة من بعد الله. إن ما يشوشه هو اختفاء الراكب من الحادثة وعدم ذكر التقرير له، وفي باطنه يكرر:

هل حقاً هرب من الموقع؟ لا أتذكر شيئاً! ربما كانت شخصيته تخيلاً أصابني من آثار الحادثة، هل كنت لوحدي، وأين هي شداً

الساحر؟ أفضل حل هو الذهاب لموقع الحادث للتأكد، ربما أتذكر شيئاً، أو علي النظر للسيارة أولاً، ربما أنشط ذاكرتي.

في إبان وجود إمكانية للخروج الليلة؛ سأل الممرضة المشرفة
على القسم الخالي تماماً:

- عفواً، ماذا عن إمكانية الخروج الليلة؟
- يجب عليّ استشارة الطبيب، وتوقيع أوراق الخروج منه، دعني
أسأله.

- هل أقدر على الذهاب بدون كافة هذه الإجراءات المطوّلة؟
- أنك تتفهم القانون وإجراءاته بحكم وظيفتك، حيث تقدسه
وتطبقه حق تطبيق، ما الداعي لي أن أفك القيود عنك دون تصريح؟
- وما هو القانون الذي يمنع خروج المريض بمسؤوليته؟
- قانونُ المرضى الجديد، فحسب تحليل الطبيب، فأنت تعاني
من اضطراب ما بعد الصدمة ونسيان عابر للذاكرة، على هذا
الأصل نرجو بقاءك حتى نطمئن على صحتك.

إن الحل في معضلة نسيان الذكريات هو عيشها من جديد
وكانها لم تحدث مسبقاً؛ لربما ترجع الذكريات الميتة. كانت هذه
من أفكاره التي فكّر فيها فقدّر، ثم فكّر حتى أعقل، الليلة
يمسي في المشفى فقط من أجل نصيحة الطبيب وتجنباً لمخالفة
القانون الذي استجد حيث يُمنع المريض من الخروج بدون إذن
الأطباء، الليلة رقود والصباح رباح.

بعد ربح من الزمن، صحا الصبح وشعر بأنه قادر على المشي
والحركة، توجهه إلى الخزانة لعل الطبيب سها عن ذكر الشداد،

ولكنه كان صادقاً فيما نطق، الأهم أنه استبدل لبس المرضى الذي يزيد من ثقل المرض على المريض.

دخل الطبيب ونظر إلى حالة مريضه، فطلب منه أن يستلقي على السرير وستجلب الممرضة له كرسيًا متحركًا، رفض جازماً سلامته، ولكن إصرار الطبيب على أنها إجراءات متبعة بموجب القانون؛ أجبره على القعود في الكرسي المتحرك.

كان سيب سجل الدكتور له هو إجراء فحص لنسيان
الذاكرة، دخل المكتب وتحدث معه:

- أخ جمعان، سنجري لك تحليلاً للدم والبول للتأكد من عدم
وجود عقاقير قد استخدمتها و...

- لم أتجرع أي شيء يا دكتور مصطفى.

- أعلم ذلك، لكن دعني أنهي كلامي. بالنسبة لتحليل الدم
والبول فهما إجراءان مطلوبان في كل المستشفيات، أما الجديد في
عالم الطب هو أشعة الرنين المغناطيسي، التي سنفحص بها منطقة
الدماغ، مع العلم أنها تقنية حديثة النشأة في هذه السنة.

- أجريت لي أشعةً مسبقاً، ما الداعي لهذه الأشعة؟ وأنا لا أعاني
من مشكلة عقلية، فما زلت أتذكر ذكريات الأمس وما قبلها
حتى الطفولة!

- إن أشعة الرنين المغناطيسي مغايرة تماماً عن الأشعة السينية،
الأولى مهمتها إظهار نقاط التخثر والبقع السوداء في المناطق
الحساسة التي منها نستطيع تحديد أماكن التجلط أو صعوبة
وصول حركة الدماء في العضو، أما الثانية مهمتها إظهار العظام
ومناطق الكسور والشعرات. إذا لم تكن لديك أسئلة إضافية،
عليك البدء الآن بالذهاب مع الممرضة لتأخذ منك عينة الدم ثم تليها
بالبول فأشعة الرنين المغناطيسي.

- على خير، لكن ما زلت أجزم أن كل وقائعي كانت حقيقةً وليست وهمًا.

- هناك مقولة عالمية يقال فيها أن المريض لا يعي نفسه حتى لو أشارت إليه.

إن تحليلات الدم والبول تأخذ ثلاثة أيامٍ جلالٍ، وعلى هذا صرفوا موعداً له بعد ثلاثة أيام، أما تحليل أشعة الرنين المغناطيسي لا تربو عن ساعة من الزمن، لذا أنتظر في الردهة حتى يحصل على استشارة الطبيب حول أشعته، وبعد ساعة نادى عليه الممرضة، وهذه المرة كان معه مراجعون ينتظرون دورهم، وكأنهم يسترقون السمع منه:

- جمعان السبيعي، جمعان...

- نعم هنا.

دخل على الطبيب المشرف على حالته وكان معه طبيبٌ آخر - يحوم بالنظر بين الأشعة وصاحبها، لاحقاً سيعرّف نفسه بأنه مختص في علم النفس - وسلم عليهما ثم رد الطبيب المشرف:

- وعليكم السلام، اجلس وانتبه معي في التفاصيل، أظهرت أشعة الرنين المغناطيسي نقطةً سوداءً في منطقة الحصين في الدماغ، وهي المنطقة المسؤولة عن الذاكرة وعملها.

- وماذا تعني النقطة السوداء؟

- إن هذا دليلٌ على وجود صعوبةٍ في حركةِ الدماءِ حول منطقة الذاكرة مما يُعدُّ برهاناً على فقدان الذاكرة العابر. سنصرف لك مسيلَ دماءٍ وحبوباً فيها مصادر السيروتونين الذي سيساعدك على استعادة نشاط الذاكرة. ونرجو أن تستأنس لنا بأن يقوم الأخصائي النفسي بإجراء فحصٍ للذاكرة وَفَقَ قواعد علم النفس. ولكن قبلها عليّ تحذيرك، إذا حدث وتذكرت ذكريات معينة، فأعلم أنها أوهام تصنعها النقاط السوداء وليس وقائع تتمسك بها.

أجرى المختص فحصاً من خلال منهج وكسلر الذي يختبر الشخص أحد عشر اختباراً منها تسلسل الأرقام والمدى المكاني والتوجيه والصور العائلية، وفشل فيها كلها.

كانت هذه الطامة الكبيرة بالنسبة له، هل كان كل ما عاشه نقاط سوداء؟ أم حقيقةً فعلية حدثت؟

إن الحل الوحيد هو الترجل عن الوضع الذي يُرثى له، بالقيام بتحقيق خاصٍ. قام من الكرسي المتهالك ولكنهم أجبروه على القعود بقوة القانون الجديد، وعندما ذهب لغرفته حتى يجلب أغراضه ويقرر الانصراف، وجد رجال أمنٍ يصفون أنفسهم بأمن المرضى يأمرونه بعدم الخروج من غرفته إلا بإذن الطبيب.



الفصل الرابع

مرت ثلاث أيام على حجره في غرفته، ولم تستمر يوماً آخر حتى دخلت عليه الممرضة وأعين الحرس تحرسها، أخبرته بأنها تملك طلباً مسبباً من الطبيب لإحضاره حتى يفحصه، قاموا بإخضاعه حتى يقعد على الكرسي رغم سلامته وجروه إلى الطبيب حتى أدخلوه عليه، سقط سهواً عنهم أن من يحرسونه سبق وأن خاض دورات تدريبية جهزته لمواقف كهاته.

ادعى أن بطنه يؤلمه حتى يفحصه الطبيب، ولما وضعه على السرير خنقه بيدٍ واليد الأخرى على فاهه، حتى تأكد من فقدانه للوعي، وبعدها استهل في خطته حيث كان يفكر في كل الاحتمالات على مدار الثلاث الأيام الماضية وكان هذا الاحتمال هو الأقرب للتطبيق.

بدل ملابسه بملابس الطبيب ثم وضع الطبيب في السرير وغطاه، صرخ بجلّة الطبيب مدعياً حاجته للمساعدة من أمن المرضى في شأن المريض، وعندما دخلوا، اندس خلف الباب حتى تأكد أن جميعهم وقعوا في الكمين، عندها خرج من الغرفة وأقفل عليهم داخل العيادة.

سار في المستشفى ولم يكن أحدٌ يشك في هويته حتى انصرف بدوت تريث إلى الخارج، ولما علم بطلوعه سالماً، وقتها أمن العقاب من قانون المرضى.

لم يطل البقاء أمام واجهته حتى سعت إليه المركبات الكدودة خارج باب الرئيسي حيث تقل فيها الشخص إلى مبتغاه، سقطت عينه على رجل كدود ودبَّ إليه:

- السلام عليكم، تُوصِّلني إلى بلدة الخرمة؟

- وعليكم السلام، نعم المنطقة لا تبعد إلا ساعة من هنا.

لم يسأله عن سعر الأجرة لعدم اكتراثه بالمبلغ وإنما غايته الوصول لأهله، وكان يفكر كيف سيفسر الرضوض وليس الطبيب لأهله. وفي المقابل لم ينهل عليه السائق بالأسئلة عن سبب الكدمات على وجهه. وفي الطريق لم يكن يفكر سوى بالحادثة السابقة، أكانت حادثة حقيقية أم مجردة من الصواب؟

وفي ثلث الأول من ساعة الطريق، التفت عليه وسأله:

- أين هو أقرب مركز مرور لكم؟

- مركز الحفيرة لكننا قفزنا عنه.

- لا مشكلة، ارجع له وسأزيدك.

لن يرفض الزيادة هذه على الإطلاق واثقاً أنها ستعطى له من الطبيب الذي ربما يستلم أجرة عالية. كان الغرض من الرجوع

للمركز هو البحث عن سيارته التي لم يعد يُعِيرُ لها اهتماماً بذاتها وإنما حتى يعرف ما جرى له وقت وقوع الواقعة، أخذاً طريق ذهابهما إياباً لعلهما يجدان المركبة، وفي الثلث الثاني من الساعة الأولى، وعلى الطريق وصلاً إلى المركز، وطلب السائق:

- انتظرنى هنا، فلن أطيل البقاء، مجرد أوراقٍ سأوقعها على سيارة أجزم أنها ذهب تشليحاً بسبب حادث ليس بضحل.

- هذا إذا سبب جراحك، سأنتظرك حتى ترجع ولو بعد حين.
نزل وهو يعرج عرجاً خفيفاً، وكان يجب عليه انتشال أغراضه عندما كان في المشفى لو أن أمن المرضى لم يكن لهم وجود، من هاته الأغراض كانت الأوراق الرسمية من التابعة الشخصية مهمة حتى يتعرفوا على صاحب السيارة المسجلة باسمه.

دخل قسم المرور وأوقفه المجند وطلب:

- تابعيتك.

- لا أملكها الآن، فأنا وكيل رقيب في سلك الحرس الملكي ولدي سيارة في حوزتكم؛ لعلمي أن تقارير الحوادث تصدرها أجهزة المرور.

- نعم، وصلتنا قبل أربع أيام مركبة جيب أمريكي طراز السبعينات، وإنما هناك مشكلتين ما زلنا نسعى لحلها وعلى هذا يجب عليك الانتظار لو رغبت في أخذ السيارة لمستودع الخردة؛ لأنها ذهبت تالفاً.

- لدي علم مسبق أنهت تلفت من الحادث، ولكن ما هي المشكلة الأخرى؟

- من الجدير أن تدعنا ننهيها بأنفسنا، والسيارة في ساحة الحجز، راجعنا غداً، حتى ننهي جميع التعليمات.

أستغرب من هذه المبهمة المحيرة، فكيف تكون السيارة في الساحة ولكن غير قابلة للاطلاع عليها، ولما رفض الرجل ضمناً على طلب التفرج عليها!

الحل الجدير هو رؤيتها بسرية، وعلى هذا أخذ ورقة الموعد المقررة غداً وخرج خارج قسم المرور وإذا بالكديد عند الباب ينتظره، فأشار له إشارة الانتظار بكفه الأيمن حتى يخبره ألا ينصرف، ودار دورة استكشافية كاملة حول المبنى حتى لمح قسم الحجز في زاوية المبنى من خلف، وكانت هناك جموع من السيارات، وإذا به يلمح رجالاً ليسوا بعساكر بل مدنيين معهم حبلٌ تُشدُّ به الجبال من قوته، يجرون أمراً تحجبه السيارات عن ناظره!

قرر القفز لأن الارتفاع ليس حاداً بواسطة مرفقيه رغم ضعف جسده بسبب الشعرة في معصميَّ اليدين التي قوضت حركته، والأدوية التي سكنت جسده، تسلل خلسةً فوق الجدار بدون علم أحدٍ، وخطأ خطأً بين السيارات المحجوزة حتى وصل للنقطة العمياء التي أعماهته عن رؤية المسحوب مع الحبل، فكانت المفاجئة أنها سيارته!

إن ما خُفِيَ ذكره هو أن الحُوار عند اصطدامه دخل على
الراكب الأيمن بالكامل وعلق في المرتبة حتى قضى نحبه، وكان
صغر الحُوار هو الذي جعله يحوز حيزَ مرتبةِ الراكب الثاني فقط،
ولما كانت جموعُ الرجالِ تحاول سحبه من مكانه، يأس بعضهم
حتى أنصرف.

أول ما يتبادر بذهن أي شخصٍ وأولهم قائد المركبة أن رفيقه
توفاه الله، لكن لماذا لم يذكره التقرير عن الحادث، هل غفلوا
عنه، أم تعمّدوا في نسيانه؟

لم يطل النظر حتى سمع بعض الرجال يحادثون بعضهم، حيث
سمح له قرب المسافة باستراقه السمع عليهم، كان الرجل الأول
الذي يحمل كتيباً صغيراً يدون ويسأل من معه:

- حسب سجلاتنا إنها الحادثة العشرون التي تحصل على هذا
الطريق، وعلى نفس النمط.

أما الآخر يتساءل:

- ألم تجدوا لقرن الشيطان أثراً؟

- لا، فقط...

كلام غير مسموع.

- اذًا، تعرفون ما عليكم فعله، عملية التحديث وإخفاء للدلائل.

أنتظر تعاقب الليل والنهار حتى ذهبَت الرجال، فنسي أن هناك
سائناً ينتظره حتى تخلق في المقابل عنه في نهاية المطاف. حلّ الليل

عندما دخل الشفق ومرت عليه ساعتان، إذا بالرجال قدروا أخيراً على إزالة كافة الدلائل عن الخردة المتهالكة والمحملة بالحوار المسكين ثم ألحقوا عملية التحديث باستئصال بقايا الدابة الصغيرة عنه.

عندما بلغ السيل الزبى وتأكد من خلو المكان من الرجال عن سيارته التي كان لم يشفق عليها عندما أخبروه في المستشفى بأنها ذهبت تالفةً حتى رآها بنفسه وتذكر اليوم الذي اشتراها قبل سبع سنين من اليوم؛ بفضل ترقيته التي أعلت أجرته وسمحت له بتحمل تكاليفها التي كانت من نوع دفع رباعي ذات الحوض والغمارة الأحادية، وكان من أوائل المشترين عندما استوردتها الأسواق المحلية من الشركة الأم شركة جيب الأمريكية التابعة لجنرال موتورز.

وجد آثار الحوار الواهن على المرتبة اليمنى، وتفحص السيارة لعله يتذكر شيئاً طمسَ عليه، زاد الليل من طمسِ الذاكرة التي يعاني منها، فلم يستطع إيجاد تلميحات، فقرر البحث عن فانوس ربما يجده على مدخل الباب أو في الشتات من حوله، تمشى قليلاً حتى وجد ضالته معلقة على مدخل السيارات، فذهبها ورجع إلى مكانه المطموس وهو يرنح يمنة ويسرة متأثراً من طاقة مجهولة وربما نتاج الأدوية.

فانوسٌ وزنه أقل من نصف كيلوغرام ومع ذلك تهيأ له أنه يحمل
بعيراً؛ بسبب إصابةٍ عرجاءٍ في المعصمين تبدل حاله من رجلٍ قويٍّ
صلبٍ إلى واهنٍ لا يصبر على ثقلٍ أصغرِ الأمور، واقعة تظهر ضعف
الإنسان مهما كان جبروته سيسقط كسقوط الملك العظيم نمرود
عندما مات من بعوضة حشحت في رأسه ٤٠٠ سنة.

كان الفانوس مساعداً في ظلمة الليل الحالكة، وعندما وصل
للسيارة كانت فقط الدماء هي التي تغطي السيارة، وبين ناقل
الحركة وجد القلادة المرجانية، ولكن في أعقاب ذلك أشتَم رائحة
بقرب السيارة في الجهة الأخرى، وكانت ريح تعفن جيفة في بداياتها
الأولى، لحق الرائحة ثم أضاء من حوله وهو يسير وإذا به يقرب
الفانوس إلى خيشة تغطي جسداً ما، ولما رفع القماش وجد جثة
الحُوار التي بدأت تفرز رائحةً عفنة وفيها أمر مريبٌ داخل أحشائها!
عظامُ الحُوار في منطقة السنام فُقدت، وعظام الفقار أُخذت،
لم تكن من فعل الحادث على الإطلاق، حتى صغير البشر غيرُ
المميزِ يقدر على استيعاب أن الصنوعة هاته هي صنوعةٌ فاعلٍ أراد
التمثيل بالجثة أو ربما الأسوأ!

في وهلة، ظهرت ومضات تشير إلى الذكريات الميتة، لقد
تذكر أخيراً، وعادت الذكريات المرعبة للحياة، فأنطفأ الفانوس
وحدث خسوف للقمر فجائياً، وبعدها رأى شهاباً وكأنما أزاح
الفاعل المقتل لهذا الخسوف القمري!

ولكن فأت الأوان حتى أغمى عليه بسبب ارتفاع ضغط الدم الناتج عن آثار خسوف القمر الخطيرة على البشر.

بعد صحوته من غفوته الفجائية وإذا بجموع من العساكر فوق رأسه متألّبين حوله في شكل دائرة حتى أفاق، حملوه لغرفة التحقيق وهو في أسوأ أحواله، وسأله المحقق:

- السلام عليكم، أعلمت بأنك مكبوشٌ عليك في أحد زوايا حجز السيارات، وهي ليست جريمة عظيمة وإنما جريمة عندما يكون لها مغزى، ما اسمك؟

- اسمي جمعان... السبيعي، ولكن يا حضرة المحقق اتهمُ عسكريٌ يعمل مثلكم في القطاع العسكري بالحرس الملكي أمر أعوج، لا نية لي بالضرر على الممتلكات العامة للدولة، والخاصة للشعب، كل ما في الأمر أنني رغبت بالاطلاع على سيارتي.

- أي مركبة تتحدث عنها؟

- مركبتي من نوع جيب، اصطدمت بها حواراً وتضررت السيارة وأنا فيها، والندوب على وجهي ومشيتي العرجاء والشاش واللصقات الطبية خير مثال.

استغرب المحقق، ودخل فيه حيرة من كلام هذا الرجل، حتى قرر الخروج ومحادثة الأفراد العساكر حول الأوراق ومداولتها:

- سلموني كافة الوثائق والتقارير حول هذا الرجل.

- سيدي، لا نملك عن هذا الرجل شيئاً سوى أنه يدعي أن له سيارة عندنا ولا نملكها.

رجع المحقق إلى غرفة التحقيق للتعليل حول سبب وجود هذا الرجل المصاب في ساحة الحجز، ورفضاً ادعاءاته حول أحقية مركبة مسجلة باسمه:

- لم نجد لك سيارة باسمك، ولا أي تقرير عن الحادث كما تدعي.

كان سيزل لسانه في طرح السبب الأصيل في حالة إغمائه وهي خسوف القمر، ومن كان ليصدق أمراً كهذا، وعلى كل حال استمر التحقيق من أسئلة عن ذاته إلى عمله وصولاً إلى حالته الصحية، فلقد أرسلوا مرسولاً إلى مستشفى الحفيرة حتى يحضر تقرير المريض الطبي.

عندما وصل التقرير وجدوا فيه إقرار مشككة خلل في عمل الدماغ، ولكن لم يجدوا الطبيين الذين عملا على حالته، مع هامش بسيط يطالب بدفع غرامة التهرب من المشفى وأنها عقوبة حسب قانون المرضى الجديد.

لم يعاقب على التعدي على الممتلكات العامة؛ لشفاعتهم على حالته صحية والعقلية، واتخذوا له سبعين عذراً، لم تكن حالته الصحية متوازنة، والأهم هو تقرير مستشفى الحفيرة الذي أوصى عدم حجزه وحاجته للدواء المستمر والإشراف الطبي بسبب بقعة

سوداءَ في منقطة الحصين، ولكنهم غرّموه في تعديّه على قانون المرضى، سجن شهرٍ وغرامة مالية معزّرة.

الشهر الذي قضاه في زنزانة الحبس، حاول تصور سوابقه وتذكر ما شهده، وكانت الدويحي تجول في أعرق هواجسه، وعندها علم أن هناك خبايا تحتاج لكاشف الستار حتى يفضحها في تلك المنطقة، ثلاثون يوماً من العزيمة على فضح الحبكة.

حل موعد الخروج، وعند طلوعه سلموه أغراضه التي لم تكن سوى قلادة قديمة لا تسوى قرشاً، ولما ولى ظهره عليهم جزم أن هناك مؤامرة تجري في هذا القسم، وأصحابها متآمرون ومتواطئون ضده، ولكن أصر على حقيقة الوقائع التي عاشها.

بطبيعة الحال لن يجد مركبة تحمله من على ناصية الطريق أمام مركز المرور، ولا كديداً عاقلاً بذاته يقف عند مركز المرور الذي لا يزوره أحداً إلا مرة في السنة، واضطر أحد مجندي القسم أن يأخذه بمركبة الدفع الرباعية المرورية إلى أقرب تجمع مركبات وهم في أسواق الحفيرة، لم يكن عملاً خيراً من مركز المرور، وإنما رغبة منهم في سحله عن ممتلكات الدولة المصونة.

لما نهض من مقعده للخروج من مركبة المرور، شد العريف يده وقال، إنه أقرب لك من حبل الوريد، بعدها أمره بالنزول والتشبث بالسلامة.

إن ما حدث من أحداث في الشهر وما يسبقه من أيام كان مريباً حتى لجبير القلب، ولا غضاضة في الاعتراف منه، أن ما حدث له طيلة تلك الأيام العجاف كان من أشد ما أربه في كل مرحلة عاشها من مراحل حياته.

لقد رماه المجد في أسواق الحفيرة، وأصبح لقيطاً يبحث عن متبن في كومة متكدسة من الناس كل فوق بعضه الآخر. إن ما أستجد في ذاكرته هو ذكريات الساحر الذي سبق وأن ركب معه حيث كان يحمل شداداً معه ولكنه لا يتذكر ما كان يخفيه سوى الخريطة.

تجول في السوق وإذا به يلمح لوحة حانوت تحت مسمى الدويحي، عندها حلت عليه لعنة الليلة التي هرب فيها من المحطة الأولى وقراءته عن خريطة تحمل اسم هاته المنطقة.

دخل الحانوت للتساؤل حول المسمى وسبب التسمية رغباً في أخذ معلومات عن هذه الوجهة التي حددتها الخريطة، وعندما كلم البائع عن سبب تسميته لمحله باسم هكذا؛ أجابه على أن هذه المنطقة تحمل بحور الذهب واكتفى بالإجابة هذه.

دار في ذلك السوق الواسع، باحثاً عن تظهر عليه علامات الكبر والتواضع حتى يسأله، حتى لمح رجل كهلاً قاعداً على بساط يبيع المسابح، عازماً على الشراء منه قبل السؤال حتى يشجعه على الرد:

- السلام عليكم يا عم، على كم هي أسعار المسابح لديك؟
- الواحدة تساوي ربع ريالٍ واحدٍ.
- سأشتريها ولكن قبل ذلك سأفأتحك بتسأؤل عندي يآول في خلدي.
- آفضل يا بني.
- هل سبق ولك أن سمعت عن منطقة الدويحي؟
- منطقة ملعونة، ومن يسأل عنها ملعون، أنصرف عني يا أسافلة السافلين.
- رأى الناس كلها تلمحه بنظرات قاسية وكأنما هو ليس السائل الوحيد.
- يا عمي أنا مجرد سائل فضولي.
- عاند عن الرد وصمت الرجل المسن بنظرات حادة. إن رده غير متوقع، ولقد قالها بنبرة نابعة من فؤاده، إن ردة فعله استآوبت الانصراف عنه، لم يع سبب استآابته المبالغ فيها، ولكنه علم أن هذه المنطقة لها سمعة سيئة تُذاع في الأرجاء.
- لقد خطأ خطوات من آانب المسن وأعين الناس حوله، وكان السوق يحوي آلات وليس بشراً برمآت على الاستآابة بهذه السلوك، أستمر هذا الوضع حتى آرج من السوق كله، وقرر المشي بانعراج بسيط بسبب الحادث، وإذا بكديد يلحقه ويتوقف أمامه على

ناصية الطريق حتى زحف إليه راجياً منه أن يركب في مركبته، لم يستجب له حتى وعده بأن يطلعه على أسرار النقطة الساحرة:

- مرحباً، لقد سببت شوشرة في السوق؛ ولم تنزل حتى خرجت عن السوق، يا رجل ما كان عليك ذكر النقطة الملعونة.

- وما علمي في هذه المنطقة وكراهية الناس لها، لقد ذكرت لي من مسافر التقيته، قال إنه سيزورها ولا أكثر من ذلك.

- أظنه لم يكن منّا من التقيه، وفي أقصى الأحوال لو ألتمسنا له الأعذار سيكون مجنوناً أو معتوهاً.

- آ... لا أعلم ماذا تقصد بغير البشر، تبادر لي أنه شخص طبيعي، لا أعلم يا رجل، ولكن ما هي قصة هذه المنطقة وسمعتها المميّة؟

- لا أعلم الكثير عنها، إن جدي قد التقى جنّاً من الفصييلة المسالمة التي اتّبعَت الإسلام وخشيت القرآن عندما سمعته في سوق عكاظ، أظنك ستتعجب وربما لن تصدق فكرة تشابه البشر مع قرنائهم المغايرين لهم في كل الصفات، الجن.

- لا لا، سأصدق كل ما تقوله، وكل هذا في صميم فهمي لهذا المكان، لقد عُشتُ معظم حياتي في السفوح القريبة منها ولم أعلم أمراً كهذا من قبل، عن إرث غامض مثل إقليم كهذا، على ذلك فأنا منفتح لتصديق أو على الأقلّ تقبل بعض الأوهام في سبيل الفهم.

- مثلما قلت لك، جدي يملك من غزارة فهم أخبار العرب ما تجعله عقيداً على قومه، لقد قابله في شبابه جنٌ كان يسأله عن هذه المنطقة، لم يكن سلوكه مطابقاً لأهل الصحراء رغم تلبسه على لبس رجال الصحاري، وكان هذا أمراً يثير الريبة، وأبى جدي أن يخبره أو يطعمه، فاضطر هذا الجني المسلم أن يعترف باختلاف جنسه عن الإنس في سبيل أخذ معلومات عن المنطقة؛ ثم أخبره جدي عن هذا المكان مقابل صراحته وبعد تأكده من إسلاميته.

- ما الرابط إذاً بين كراهية الناس للمنطقة الغربية، وبين قصة جدك؟

- يا رجل إنها منطقة تفضلها مخلوقات باطن الأرض، التي حقيقةً لا أعلم سبب تفضيلهم لها.

- أعذرني على وقاحتي، هل ما زال جدك على قيد الحياة؟
- نعم، ولكنه هَرِمَ الآن ولم يتحدث منذ ثلاثين عاماً، ولا أظنه سيحدثك على الإطلاق.

- سأقطع الشك باليقين، يجب أن أحاول في سبيل الحقيقة.
- وما نصيبك من معرفة المزيد، فهذه منقطة الجن الخالدة، ومكان مكروه تخلو منه كل علامات الحياة سوى الحيات الجاحرة في جحورها، ابعد عن الشر وعش.

- إنك لا تعلم ما مررت به أنا، لقد فقدت الإحساس بالزمن نتيجة ما حدث لي من أهوالٍ، كان من المقرر أن أزورَ عائلتي قبل...

لا أتذكر ما تاريخ اليوم ولا ساعتنا الحالية، تباطأت في الوصول إلى مرقدي عند أهلي. أنا بحاجة لفهم القصة حتى أفضحها عن بكرة أبيها، أنها مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.

- حسنًا، إن جدي مثلما قلت لك هو مثل الطريح في الفراش؛ لا يتحدث ولا ينادي بأمر، ولكن جرب حظك معه.

لا يستطيع المرء نكران ما مرّ به من مصائب حيث بدأت مع مفسر الأحلام الملقب بالمامون الذي لم يلتق به حتى صادف الثالث العجاف، والذي قدر له الشاعر الواهن برزق طال أجله لا يحدث إلا للأنبياء، حتى وصل إلى الساحر الناحر الذي أوصله إلى أسرار البشرية الجماء من منطقة الدويحي، إلى الإيمان بأساطير الأولين من جن وعفاريت والتسليم بوجودهم حتى رؤيتهم كما حدث مع أكل العظام الذي أكل عظام الحواري المسكين وتركه جثة عجفاء بلا عظام سوى لحم قد أكله الدود الآن.

وَعَدَه بإيصاله إلى جده الذي لا يبعد كثيرًا عن مسقط رأسه، كانت الطريق المؤدية إلى عقر دار أهله حيث يبيت الجد معهم وعراً في سهول تغطيها جبالاً، وكان لطقس الصيف أن جرد الجبال من خضرتها والسهول من أعشابها، دارٌ تجعل الناظر يتبادر إلى ذهنه أن الحياة بسيطة لدى أصحابها.

أبياً عن الحديث لمدة ساعة حتى وصلاً إلى منطقة مسورة تسويراً بسيطاً، داخلها بيت مصنوع من الشَعَرِ مقسوم إلى قسمين للنساء

والرجال، وبيت معمّد بالخشب ومسقف بأوراق، حيث النساء
يجهنز الفطور في البيت الخشبي والرجال في بيت الشعر، دخلا إلى
المنطقة المسورة ولم يكن لأصحاب الدار نبرة بسبب سروحهم إلى
أعمالهم، الصغير منهم يرعى الأغنام، والكبير يعمل لإطعام البيت
خشية عليهم من الجوع.

على هذا الأصل، لم يستقبلهما أحد سوى صموت كبير السن،
ونبأة النساء في طبخيهن. كان الجد لا يستقبل الرجال عندما يأتون
إليه فلا تثريب على الإنسان الذي رفع القلم عنه، واصططكت
صفحته في الكتاب، وسمح له بالعصيان، ما دام لا يفقه أفعاله،
كان هذا ما حسبه في البداية.

ناداه حفيده:

- يا جدي، هناك من يحتاج معوذتك، رجل تقطعت به سبيل الحياة وعانى حتى يصل لك، إنها مسألة حياة أو موت بالنسبة له، أنت مخلبه من بعد الله.

- دعني أجرب حظي معه، ولكن ما اسم جدك؟

- هايف.

- يا عم هايف، قَدَمْتُ إليك من صوب الحفيرة سائلاً عنك، وباحثاً عن أجوبة لا مجيب عنها غيرك، هل سبق وأن أُطِيعْتَ على معلومات عن منطقة الدويحي جنوب الخرمة؟

لم يستجب الجد، وكأنه روح بلا جسد، جمادٍ حيٌّ إن صح التعبير، ولا ينظر إلى المتكلم حتى يعطيه انطباع عن نفسه في أنه لا يسمع ولا يرى، فربما قد يكون ضريراً وأصمَ في آن واحدٍ، ولكن حدثت المعجزة عندما ارهصه بسؤال عن:

- يا عم، أنت الوحيد الذي يعلم الخبايا، لقد مرت عليّ ظروف في الأيام الماضية، حتى أنني غدوت ناسياً لعدد الأيام التي مضت هل مرت سنة أم شهر، كانت بداية النهاية حلمًا مُكذَّباً افتريته زوراً على نفسي وادعيت حدوثه، فلا أعلم أن كان هذا عقاباً لي من الله. واجهت رجلين غيرا مساري وربما للأبد، منهما الساحر الذي يحمل دفتر أبلّيس وقبيح السجّية الذي وجدته يأكل عظام البهيمة

وأنا في أصعب أحوالي، وكلاهما ياميان جعلاني أصدق مُسَلِّمةَ
الجنِ والسحر و...

وفي صفقة ربح أهتز كبير السن من مقعده ورد وكأن أحداً
صفعه:

- هل قلت يامياً!

- نعم، ولكن ليس هذا هو مقص...

- إن هذا يغير كل شيء، لقد تحققت النبوءة، كانت مقدرة
ومعلومة، فقط الزمن هو من سرّعها.

إن آثار الرعب بدأت تتوجس كبير السن الهزيل، فلم يتحدث
كثيراً منذ سنين عويصة، وعندما انطلق رجعت كافة أحاسيسه
وكأنما رجع طفلاً خائفاً من ظله يتودد أحد والديه لحمايته،
ولكن ما من مستعطف على كبير سن حتى يحضنه في هذه الحالة.
كل شيء يتمحور حول الياميين، كما تبادل لذهن السائل
والحفيد، فقد علما أن الجد يحمل في جعبته معرفةً غائرةً حول
طبيعة هذين الرجلين، على هذا عاود الكرة من جديد وركز
عليهما:

- لا أعلم حقيقة هذين الرجلين، رغم أنهما ليسا طبيعيين في
سلوكهما، واحدٌ تبادرت عليه علامات التدين حتى أنه أمّ بنا صلاة
الفجر إمامةً صحيحة، ولكنه سها عندما قرأ لنا سورة الجن، ففي
الآيتين الأولى من سورة الجن عندما استمعت الجن لترتيل الرسول

القرآنَ في سوق عكاظ تعجبوا منه، حتى قالوا إنّنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، أما الغريب أنه قال...

- قال إنّنا حقًا سمعنا العجب، ردّ متوقع.

- نعم هذا ما قاله!

- أما فيما يخص الرجالن والمنقطة المحرمة، هناك ملحمة عظمى تدور حول هذه المنقطة وترتبط مع يام الذي يرجعون إلى همدان، وليست القصة عن قبيلة برمتها، وإنما عائلة صغيرة منها نشأت قبل قرون مضت في الجزيرة العربية، هذه العائلة يؤرخ لها أجدادنا وأتذكر القصة بكامل نواصيها، وعلى هذا سأرويها لك، وأجزم لك أنك ستفقه الحكاية عن بكرة أبيها، فاصبر معي تُجزأ.



الفصل الخامس

حُكِيَتْ قِصَّةٌ عَنْ رَجُلٍ أَعْرَابِيٍّ مِنْ أَعْرَابِ الْبَدْرَاءِ كَانَ يَعِيشُ
هُوَ أُمُّهُ فِي خِيْمَةٍ وَرَثَهَا عَنْ أَبِيهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ وَهَيَّئَتْ سَكَنًا لَهُ وَأُمُّهُ فِي
مَنْطِقَةٍ سَهُولٍ نَامِيَّةٍ وَنَخِيلٍ عَامِرَةٍ، تَمْرَحُ وَتَبْرَحُ فِيهَا الْأَنْعَامُ مِنَ
الْأَبْقَارِ وَالْأَغْنَامِ وَالْإِبِلِ، وَكَانُوا فِي عِزْلَةٍ سَهْلِيَّةٍ مَغْطَاةٍ بِالْجِبَالِ
حَمَتُهُمْ مِنْ أَعْيُنِ النَّشَابِينَ الْجَائِعِينَ.

أَمَّا عَنْ تَقْسِيمِ الْأَعْمَالِ فَكَانَتْ الْأُمُّ تَرْعَى الْبَقَرَ وَالْإِبِلَ لِقَلَّةِ
عَدَدِهِمَا وَسَهُولَةِ الْقَدْرِ عَلَى رَعِيهِمَا الْبَقَرَ لَا تَخُورُ وَالْإِبِلَ لَا تَرْغُو إِلَّا
عِنْدَ الْجُوعِ وَحَرَكَتُهُمَا قَلِيلَةٌ وَمَقْدُورٌ عَلَيْهِمَا، أَمَّا الْابْنُ فَاعْطَى زِمَامَ
رَعَى الْأَغْنَامِ الَّتِي تَتَغَوُّ بِدُونِ سَبَبٍ وَلَا حَسِيبٍ، حَتَّى كَثُرَتْ رُؤُوسُهُمْ
تَسْتَلْزِمُ رَجُلًا قَوِيًّا فِي بَدَنِهِ وَنَشِيطًا فِي لِيَاقَتِهِ.

فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ وَفِي وَقْتٍ كَانَ مَا قَبْلَ الظَّهِيرَةِ، دَخَلَ الْابْنُ إِلَى
الْخِيْمَةِ حَيْثُ يَرْتَاحُ بَعْدَ سَوْقِ الْأَغْنَامِ فِي رَعِيهَا، فَوَجَدَ طَعَامَهُ مِنْ
كُسْرَةِ خُبْزَةٍ وَإِنَاءٍ حَلِيبٍ مَقْعَرٍ جَاهِزًا وَدَعَا لَأُمِّهِ فِي طَهْرِ قَلْبِهِ،
وَأَكْمَلَ يَوْمَهُ طَبِيعِيًّا.

أَتَى الْيَوْمَ الَّذِي يَلِي سَابِقَهُ، رَجَعَ بَعْدَ غَيْبَةِ مَعَ الْأَغْنَامِ فِي رَعِيهَا،
وَدَخَلَ الْخِيْمَةَ فَوَجَدَ غَدَاءَهُ كَسَابِقِهِ، فَشَكَرَ أُمُّهُ فِي طَهْرِ قَلْبِهِ
وَأَكْمَلَ يَوْمَهُ كَالْمَعْتَادِ، ثُمَّ تَكَرَّرَ هَذَا الْأَمْرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّى
أَتَتْ أُمُّهُ تَفْضُضًا لَهُ تَأْسَفًا عَنْ إِهْمَالِهَا فِي تَجْهِيزِ الطَّعَامِ:

- يا بني، أظنك عالماً بالأحوال، فأنا كبيرة سنٍ ولا أقدر على تدارك أعمالٍ كثيرةٍ، فإلتَمَسُ لي العذر على سهوي عن حلبِ البقر وعجنِ الخبز لك حتى ينسيا ضمرة بطنك، ولكن رغم هذا لقد ساندتني في هذه الأعمال فعجنتَ لنفسك وحلبتِ البقر وما تبقى من الحليب رجعتُ له حتى أطعم به نفسي.

في هذه الحالة لم ينبس الابن حرفاً لأمه، خوفاً عليها من الشك في نفسها، على حسب ما ظنَّ أن والدته هي من كانت تعدُّ الطعام ولكن أعراض مرض النسيان بدأت تتبلور وربما كبر السن عاملٌ أصيلٌ في ضعف حواسها وذاكرتها لاسيما أن الأيض لدى البشر ينخفض تدريجياً مع تقدم أسنانهم وهو ما فهمه السلف كل الفهم بتسمية مرض النسيان بالخرف ولكن بخرافاتهم الواسعة.

كانت الخرافات في الجاهلية الممتدة على فترة العصور الوسطى وما قبلها عجيبة كل العجب، كان الملاسوع والمدوغ يقلدان بالفضة والذهب حتى يشفيا، والمصاب بداء الكلب يطالب بدم شبيخة القبيلة ذاته حتى يتداوى منه، بل الأدهى أنهم اذا شكوا في أن مريضهم مَرَضَ من عفريت يحملون بغيراً بالشعير والتمر والحنطة ويرمونهم على شعاب الجبال؛ فإذا نقص حمله ظنوا أن الجن قبلت الهدية ويلي ذلك شفاء المريض، أما لو رجع البعير كاملاً فهذا دفعٌ عن حمل البعير منهم مما يُدِلُّ على عدم شفاء المريض!

أما فيما يخص طرقهم في اختبار مرضى الخرف مغايرة عما نستخدمه اليوم، من سبيل الطرح وليس الحصر، أن من يغفل عن حشر التعداد على الأغنام ويأتي وهو جالب البهم بدون العنز، أو قد يرجع لمبيته ويترك حلاله بدون عمدٍ نسياناً منه، وتصل الطرق إلى الاختبار من أسئلة توجه للشاعر عن شعره حتى ينسى شعره للتأكيد على نسيانه، أو سؤاله عن مؤدى هذا الطرق القاحط، وتكثر الطرق ولا تتوقف على هذا أبداً.

تكررت الحادثة مرة أخرى فوجد إناء الحليب المقعر وكسرة الخبز مُعدة، حتى سألتها مرة أخرى وجاوبت بنفس الإجابة، قرر اليوم الذي يليه أن يراقبها وهي ترعى الأبقار والإبل فوجدها تطعمهم وتسقيهم ولا شيء مثير للانتباه، وعندما رجع حصل طعام الإفطار جاهزاً له وكأن الوحي أعد له المأدبة.

علم أن من جهز الإفطار لم تكن هي لأنه سبق وأن خرج من الخيمة وهي ضامية، ثم رجع لها ووجدها عامرة بالطعام الغير المعتاد، الذي لم يكن من صنيعها لا محالة، وإن كانت صدقة أو إكراماً من جيرانهم، إنما أقربُ خيامٍ لهم تبعد من خيمتهم خمس أيام، على هذا الموال كانت الأفعال لا تجد من يفسرها!

حوادث كهذه تتطلب معرفة الفاعل، لأن من صنع هذا الخير كان يصنعه من خير البيت نفسه؛ أي لم يكن صدقة بل اعتداءً على حرمة البيت بدون إذن صاحبه.

قرر نزع الإذن من أمه حول ارتحاله:

- أماه، وصلني نداءً من خيام العجيج، وأنا مجبور على تلبية النداء لهم.

ظننتُ الأم المسكينة أن الابن سيحارب في اتحاد خيام العجيج، ومنيته اقرب مما تصورت وتخيلت.

- يا بني، إن مت من يرعى البهم والماشية غيرك، ولما تتركني في هذا السهول لوحدي بدون حام؟

- يا أمتاه الرب معك، إن كان النداء للحرب فأنا رافض له، وعندي سبب أهم لرفضه وهي أنني أرى ما شيتنا التي تستقي خيام العجيج من الفحول للتزاوج مع ماشيتهم، كل ما أحтаجه هو صبرك خمس ليالٍ، وأعدك ألا أبيت عندهم كيلاً أطيل.

جهزت أمه الشدادَ داخله أقراصُ الخبرِ كيلاً يجوع، والأقطُ ليدراً به جوعه إذا أحس به، والقربة داخلها الماء حتى لا يعطش، وحبلٌ مُقرنٌ حتى يمنع بها جوعه إذا اشتد. خرَّ على ظهر سفينة الصحراء، ناوياً ألا يقف سوى في خيام العجيج، وكانت رحلة تميل إلى الاستقصاء عن دخیل الخيمة، رغم أن الدخیل قد يرجع إلى أمه. مخاطرة كبيرة ولكن ثمينة، في رحلة ستأخذ أياماً من ذهاب وإياب، ومحفوظة بالصعاب والمفاجآت. إذ قد يقطع طريقه قطاع

الطرق، أو تلسعه آفة زُعاف تميته في دق من الزمن، أو يموت جوعاً أو عطشاً وهذا الأمر الأخير مستبعد؛ تقديرًا عند البشر قديماً على بأسهم في تحمل الجوع والجبل من صغرهم على أكل طعام أقل من احتياجهم حتى تكيفوا.

كحل عينيه وتدهن حتى انطلق في وقت الظهيرة تجنباً للسفر في الليل؛ لأن الليل ثروى القصص أن من أتخذوه مسلكاً في سفرهم حلت عليهم اللعنات والمصائب، فهو وقت الغيلان التي تتغول للبشر، وقطاع الطريق الذي لا يفضلون العمل إلا ليلاً كيلا تُعرف هوياتهم، والحشاشين الذين سُيرت كتب عنهم في عمليات اغتيالاتهم وتفضيلهم حلقة الليل على سواه.

قبل تحركه بقليل، لحقته أمه راکضةً معتذرةً عن نسيانها سن الثعلب المعلق على قلادةٍ حيث يوضع على رقبة الشخص حمايةً له من الغيلان والعفاريت التي تتشكل على هيئة أفاعٍ، فقال الابن الشاب لأمه:

- يا أمتاه، سن مخلوق لا يقارب مخلب الخالق، فالرحمن معي وهو يحميني ويحميك.

- نعم تألب ريام معك، وخذ هذه القلادة معك يا بني من أجل أمك التعيسة، كي أنام مطمئنة عليك.

أخذ قلادة الثعلب براً بأمه، رغم شكه بجدواها، وأخذ يردد في نفسه: كيف لسن ثعلب أن يحميني من آفات البدراء؟ كل

أسناني التي سقطت منذ نعومة أظفاري لم تستبدلها الشمس بخير
بل هي الشمس نفسها تطلب الرزق مثلما نطلب نحن منها ويأتيها
رزقها من مولى أقوم منا جميعاً.

تحرك أخيراً بدون توقف إلا في الليل لباساً وراحةً، والنهار
معاشاً وشدةً، ولم ينزل عن ظهر البعير إلا وقت الغسق، أما وقت
شروق الشمس يستأنف السفر إلى خيام العجيج.

أوقف البعير حتى يرتاح، ثم لم تلبث السماء حتى خفت
سطوعها، واشتعلت نجومها.

جلس موجهًا قبلته على ضوء القمر الخلاب يتمعن ويتفكر
كيف لصنم جامد يصنع هذا العالم المبهر في تصويره البديع نجومًا
صغيرة ولكنه يعلم أنها ضخمة الحجم ولم تُصنع عبثًا وفق قوانين
عشوائية، بل خالقها كيان جبار يفوق هاته الصخرة الزائلة، معلناً
من الليلة هاته وصاعداً رفضه للوثنية.

استرخى على كتيبان ناعمة ونسيم خفيف البرودة لا يرتقي
للزمهرير، يأكل الأقط ويشرب معه الماء لتخفيف ثقل الأقط على
المرء. في لحظة فقط أصوات الرياح وحسب هي المميّزة، وإذا
بالأرض تهتز قليلاً اهتزازاً لا يثير الريبة ولكن يزيد النباهة قليلاً،
إن نهاية القمر اليوم مكتملة في طور البدر وشعاعه يظهر بعض
الأجزاء المتناحرة من الصحراء، إنما لم يقم الرجل حتى حس أن
الهزة ازدادت أكثر مما سبق!

خرج من بقعته ولوح بناظريه يمنة ويسرة؛ فوجد ضالته المرعبة، إنها آفة سوداء أكبر مما تصورته البشرية في جُل نطاق أطوار حياتها، حية ضخمة يلمح جزء منها من بعيد، كان البعير وصاحبه فوق التلة الصحراوية مما مكنه من رؤية مجالٍ أوسع، إنها أفعى لا مثيل لها، حتى البعير فض من مكانه خوفاً رغم أنه لم يرها بل الهزة هي أعظم على الحيوان، حاولت البهيمة التصل عن المكان ولزمها راعيها فبركها في مكانها خشيةً من هروبها.

في نفسه يردد وفرائصه ترتعد: ما أعظم هذه الآفة، مدبر الحياة الأعظم جرن أنا ومن معي نزوحاً من مخلوقاتك المسبحة لك، عالم العلماء أنت ولينا ومولانا أضلّ عنا معجزاتك في الأرض.

رمى سنّ الثعلب مكذباً له، ومصدقاً لخالق الكون وخاضعاً له، ولم يقم عن خضوعه على الأرض حتى خرجت الشمس، حيث اختفت الحية السوداء المرعبة من مكانها، وجرتها هبت عليها رياح الصحاري حتى طمستها. ركب البعير ونزح بعيداً ولم يبق إلا القليل على خيام العجيج، وبعد رَدحٍ من الوقت ظهر سواد الخيام المشعّرة من بعيدٍ وعليها أفواج من الناس كأنما يحومون عليها وما هم إلا بباحثين عن رزقهم.

عندما رآه الصبيان هلعوا إليه كالكلاب الجائرة الطائفة حول اللحم؛ رغبةً منهم في عرفان الغريب وسؤاله عن سبب مجيئه، فقال:

- أنا جاركم، لا تقفوا أمام البعير القارح.
وإذا برجل يلحق الصبية حتى يزيحهم من الدابة وراكبها الذي
ميّزه عن رحلات سبقت، ومعتذراً له:
- الصبية لم تميزك ومرفوع عنهم الخطأ، أرم العقال ليّ حتى
أوجه البعير لك صوب الخيمة.
- لم تفعل الفتية الكثير، مجرد أطفال تلهو ولا حرج في ذلك.
- صدقت، ولكن إن لم أكن وقحاً ما هو سبب مجيئك وسبق
أن أتمننا معك آخر تجارة قبل فترة وجيزة، في صفقة فحول الغنم!
- إن لديّ رسالة فحواها دخيل، دخيل أستباح أرضنا ودخل
خيمتنا ولم نقدر على رصده.
- وأتيت للمساعدة منّا؟
- لا، ولكني لا أتهمكم أيضاً، فإن أقرب تجمع قبالتنا هم
أنتم، لا أحد سواكم.
- يا همداني، أبناؤنا ممنوعون من السفر بالبعران؛ فكيف
قدروا على الوصول لكم في جزء يوم؟
- لا أتهمكم كما قلت، وعلى هذا؛ أريد تقليب هذه الحادثة
مع كبير القوم عندكم.
- وجّه المضيف الضيف إلى دار كبير القوم، في خيمة وسعها ثلاث
خيّام، يبرح فيها السقاة يرمون الفندجان على البعيد والقريب، ولا
تنام دلالهم ليلاً حتى تسقي الجميع. عندما دخل على كبير القوم

قام وجهاء خيمة العجيج مرحبين بالضيف حتى مر عليهم جميعاً،
وأسند أنفسهم على مسندٍ قبالة شيخ القوم.

سكت الجميع في انتظار الضيف في خبره، واستمر الحال دقاً
خلف دقٍ إلى أن كسر أحد رجال القوم هذا الصمت بسؤال الضيف:
- سمعت أنك آتياً في شكية على حق خاص، وكانت هذه

الشكية تخص خيامنا في متطفل مجهول تظن أنه منّا!

ألقت شيخ القوم ورد على السائل المتعجب من رجاله:

- غير صحيح، لم يشتك أحد علينا، منذ أزمنة ولت، وبطبيعة
الحال لن يأتي شخص اليوم يشكي مظلّمته علينا، على هذا دع
الهمداني يتلو ما لديه.

- أنعمت عليك تألب ريام بالرزق، لطالما كانت خيامكم
مصدر حياة في كافة المنطقة، نشترى منها ونبيع لها، نتبادل
المعارف بيننا، والأخبار حولنا، والحماية علينا، ولم يحصل أمر
منكم منذ نعومة أظافري، حتى أنني لم آت تظلماً عليكم، إنما
بطبيعة الأحوال لا قريب حولنا سوى أنتم والآف...

تصلب وكان يغوص في جسمه سمٌ مثل سمِّ زعاف، متذكراً
الحية المارحة من نار، وكيف نجا وقدرَ على نسيانها!
أنها آفة ترتجف فرائص أعتى المخلوقات في الطبيعة منها،
وزحفها عنه كان أعجوبة مقدرة له، ولكنه عموماً رجع إلى صوابه
متناسياً وجابراً نفسه على النسيان حتى يقوى على الحديث،
وأكمل:

- أنتم وماشييتنا، ولا قريب لنا غيركم وغيرها، وعلى هذا لا
نية لي بالقول زوراً عليكم، وإنما أتيت للتقصي عن آخر زائر لنا من
طرفكم وعلى أحدث جسور أُستحدثت من طرفكم فيمن يأتي
إليكم طالباً العبور أو التوقف استجماماً حتى يشد قوامه إلى
الرحيل.

- إن جسور خيامنا لا تصل إلى خيمتكم وماشييتكم، ولا إذن
للترحال والعبور إلا مني، ولم يصلن شخص يأتني الإذن للسفر،
وحتى بعيراننا وخيولنا مربوطة في سياجات مسورة لا دخيل أو خريج
منها إلا بإذن مسبب مني. لكن أستطيع الإشارة إلى أحد نقدر فيه
على مساعدتك، أنت ضيفنا وأهم الرجال المتاجرين معهم، ولن
نسمح لك بالذهاب حتى تحصل على المعونة منا، سنرسل معك
رجلين من شجعان قومنا بنصولهم المزخرفة، معك حتى تسقط
الدخيل على قفاه، وتألّب ريام معنا.

- حقاً لم آت عبثاً، كرمكم غطى على عيوبنا، أتيت شـبه
متعمداً في نسب التهمة لكم، ورددتـم عليّ بهذه الواحة من كرم،
طال بقاؤك يا كبيرنا.

وعيد الأبن إلى أمه تحقق، فلم يمس عند هاته الخيام، وسيرجع
بمشيئة ربه الجديد إلى أمه لو ارتحل الآن، وهذا ما حدث، وجد
البعير مُغدق بالطعام والماء يكفيانه حتى أسبوع، وأثنين من الفرسان
بسيوفهم خلف البعير يسوقونه.

ساروا ثلاثاً في صبيحة، قبيل حلول الظهيرة بساعات طويلة،
الهمداني فوق بعيره، والفارسان على أطراف البعير حراسةً له من
قطاع الطرق. عندما حلت الظهيرة وقفوا للتموين من البعير سقياناً
من العطش ودرءاً من الجوع، وحدث حدثٌ لا يتكرر إلا قليلاً.

حدث كسوف للشمس حول نور الشمس إلى ظلمة، وكأنما
حل الليل من جديد، لم ترتب الرجال من الموقف تعوداً على ظاهرة
الكسوف القمري والكسوف الشمسي الطبيعية المشابهة مع ظواهر
العواصف والأعجة، وأكملوا سيرهم في ظلمة طامسة صاملين على
التوقف عند مقصدهم في رحلة يُتوقع منها الغرابة.

في مسيرتهم هاج البعير رغاءً عليهم، وهي حالة حدثت مسبقاً
عندما كان الابن ذاهباً إلى خيام هذين الفارسين في الليلة الأولى.
ارتعب البعير وكأنه جس أمراً معيناً وأدرك الحبكة الملعونة
التي اقتربت، نط الابن قفزاً وبرك البعير حتى لا ينفض البعير هرباً

منه، والرجلان متعجبان من صنيعة الابن على بغيره، وإذا بواحد منهم يسأل في دهشة وعلى سماته الفجوع:

- لما برّكت البعير، ونحن في صحراء فضفاضة خالية؟
- إنها ليست بخالية، فيها السواد الخبيث، المتلصص على الضعيف، والتمكن من الهزيل.

فرد الفارس الآخر:

- أي سواد تقصد؟ إن هذا الكسوف المتزامن، يعايشه منا المعاصر، ويمر علينا كالمسافر!

- يا رجال قوم العجيج، إنكم لا تفقهون الحبكة الخبيثة، إن هناك في طبيعتنا القاحلة أكثر من ماشيتنا ورجالنا، مخلوقات ليست من عالمنا، تترصد أضعفنا وتقوى على غير المؤمن منا.

إن بعيري وسفينتي في الصحاري، بطبيعة هذه المخلوقات الرفيعة العلوية، تتميز في مقدرتها على استشعار البعيد الغريب، إن ما سوف تشهدونه يا رجال، سيغير وعيكم عن هذه العالم الواسع، سيمدد منظوركم القصير إلى أمد المديد، فاصبروا معي واحتسبوا.

لم يفهم الفارسان المغزى من كلامه، وإنما في نظرهم رجل جن جنونه حتى أوقف عليهم قافية الرحلة، وهما مجبوران على الوقوف معه تنفيذاً لأوامر كبير قومهم، وعلى هذا اضطررا للاستمرار على هرطقة الابن في حديثه الخيالي عما وراء الطبيعة وهو يردد لهم ساجداً - استعدوا ثم استعدوا - بصيغة الجمع وهما رجلان فقط،

موضحاً احتمالية شمولية الخطر إلى كافة الجمّل من البعير والرجلين حتى هو بنفسه.

مر ردح من الزمن والرجل ساجد، منتظراً هدوء البعير، فإذا هدأ البعير اطمأن، ولكن ما زال البعير يرغبو بلا حسيب، حتى طفح الكيل لدى الرجلين وقررا إرسال رسول منهما يُنبئ شيخ القبيلة بمصيب المصاب معهم الذي جن جنونه.

حمل الفارس نصله وقربته وخرج من نقطة القافية ودب إلى إيابه في عقر داره حتى يخبر القوم بما حدث، فهو في نهاية الأمر جندي لا يصنع الأوامر بل ينفذها حتماً عليه وإلا كانت عقوبته نفيّاً في أقل الاحتمال وفي أقصى العقاب شنق حتى الموت. وعندما بلغ منهم قطر شعرة أشد رغاء البعير صياحاً ولم يعر له شيئاً لأنه جندي سبق وأن جابه صيحات الحرب المرعبة رعباً والأعتى من صياح البعير الزائل.

في وهلة، ظنّ الفارس أن الأمور على ما يرام، ولكن عندما قطع شوطاً عن قافيته حتى زال من ناظري أصحابه؛ شهد أفزع ما رآه في حياته، حتى أصبح يردد في جوارحه - إن هذا ليس من فوق الأرض بل مخلوق من تحت الأرض فاحمنا يا تألب ريام - وفرائصه ترتعد رهبة مما شهد.

سُمِعَت صيحات من بعيد، وقام الابن فزعاً من سجوده يلتف من حوله بحثاً عن الصيّا، ولكنه وجد الفارس المتبقي قاعداً على ركبته ينظر على جهة الصيّا، فسأله:

- أين حلّ رفيقك؟

- أخي وعصيدي وسندي، حتى الغزوات لم تجعله يندب
بالصياح على الإطلاق، هناك أمر مرعب في هذه البدراء اللعينة،
مخلوق ليس منا بل والرب إنه علينا، يا تألب ريام انقذينا.

- أصنامكم البائدة المتصلبة لا تسمن ولا تغني من جوع، تعبد
بشرّاً ماتوا من قبلك، فلو كانوا آلهةً لأنقذونا ولكن خالقك الذي
في السماء هو المعين.

- أنت رجل مريض ولست في عقلك، تسجد للنجوم وتظن ربك
فيها، وهو في الأرض معنا.

أدبر الفارس وحنّ على صاحبه ركضاً بعد السجال، وحدث ما
حدث مع أخيه الفارس فصاح صيحةً لا تشهدها حتى في الحروب،
صيحة رجل احترقت كل خلية في جسده ولم تُغنِ آلهته ولا بمثقال
ذرة.

وصلت صيحة الفارس الأخير إلى الابن، وعندها صبر وقال -
رب أخرجني مخرج سلم وأحفظني أنا ومن معي راجعين إلى قعرنا
آمنين - فمرت الآفة المارجة الخبيثة أمامه بطول مهول لا بداية ونهاية
له، وعرض تبيض منه العيون، ولم تقوَ على القرب من الابن وبغيره
حتى هبت بعيداً عنه واشتعلت نيران الشمس من جديد لتتيرسواد
الشر من الأرض.

لا فائدة تُذكر من التحقق من الفارسين، فأمه أولى منهما،
الذي وعدها بالقدوم لا بالتأخير. استمر في الرحلة يسابق الزمن لعله
يصل إلى عقر داره وما زال الخوف يترصه بطبيعة النفس البشرية
الواهنة من المجهول.

قُدِّرَ له أن يصل قبل الشفق في حيلولة المغرب، واستقبلته أمه
فرحاً وتهليلاً، فقامت بتجهيز المأكل والمشرب له، والملبس الطاهر
عليه، وإنما ما بعد التعب يأتي الراحة، وفي حالته زاد التعب عليه،
لا دخيل قُبِضَ عليه، وفارسان فُقدَا في العراء، ولم يتحصل على
فائدة مرجوة.

عندما أحضرت أمه المأكل جرّت الكلام إلى سؤاله في أول
الكلام عن:

- أوجدت الدخيل علينا؟

يا أمه - أراد التعبير عما حدث ولكن جناح الذل من الرحمة
كان أقرب له - كان طريقي ميسراً، أما الدخيل لا أمارات عليه
أنه من خيام العجيج، وربما يكون من قطاع الطرق الذي يستولون
على القوافي.

- ولكنّا لم نشهد قطاع طرق منذ زهرة عمري مع والدك حتى
الآن.

- الدنيا لا تبقى على حالها ، وقطاع القوافي يبدلون مواقعهم
باستمرار وبلا كلل ، إنما خطتي في القبض ستكون محكمة
ودقيقة ويجب عليّ أنا وأنت الإحكام بها ، والتصرف بناءً عليها.
- أنا معك يا بنيّ، في السرّاء والضراء.

- أن الخطة ستبدأ بالتلاعب على الدخيل على أنا غير متواجدين
كالعادة ، نرعى ماشيتنا من إبل وبقر وضأن ، ولكن الحقيقة
ستكون مغايرة لهذا التخيل. سنربط الإبل والبقر في مكان بعيد
جاعلين منه مصدقاً أنك يا أمي ترعينهم ، أما الماشية سأجعلك
تسوقينها وحدةً وحدة ، أما أنا سأكون في الخيمة متربصاً للدخيل
البغيض انقضاضاً عليه في الوقت المناسب.

- ولكن ماذا عن حين المؤامرة؟

- يا أماه ، إن ما نعرفه عن هذا الدخيل هو تلصصه على
السُّكنى وقت الظهيرة ، وبغضه ليل بلا سبب ، وعلى هذا الأصل
سنبدأ العمل بالخطة بعد الفجر وقيالة ظهور الشمس من مشرقها ،
وإنّ الصباح رباح.

ناما حتى ظهرت سمادير الشمس موضحة أن الفجر أنقضى
وحل الصباح ، فהלح الابن إلى أمه حتى يبدأ العمل على الخطة مبكراً
قبل قدوم المعتدي اعتداءً مرة أخرى كما تبارى لهما. قامت الأم
وربطت البقر والإبل في عقر مسور ، أما الماشية ساقتهن بعيداً ليظن
من يسترق الأنظار عليهم أن الخيمة خالية من أهلها ، وضامية من

حراسها ، ولكنه أعمى عن ضالته وضلَّ عن طمعه من أصحاب
الخيمة كيِّداً له.

سأقت الأم نفسها خارج حدود الخيمة رعيًّا للأغنام، والابن
نصَّب نفسه خشاً في الفراش انتظاراً للصعلوك المشرّد، إذ سينقض
عليه انقضاض السباع على الضباع.

مرت جزية قليلة من الزمن حتى بدأت خشخشة في خلفية الخيمة
تخشخش، وكأنما شخص يبحث عن شيء ولم يجده، حتى التف
من خلف الخيمة إلى شرفة الخيمة ووقع في الكمين المكيد له
خصيصاً، فقفز الابن وإذا هو يُفجّع مما رآها!

- من أنتِ يا امرأة؟

صرخت الأنسة فجعاً وردت:

- شهدتني ومنك الزواج، وإذا رفضت؛ ستطاردك أخوتي حتى
تقبض على روحك ولست عنهما ببعيد.

- لم أختل بك، أنتِ الدخيلة وعلينا محاسبتك في اعتدائك على
حرمة أرضنا وخيمتنا.

- الخالق يعلم أنني لم أنوِ الشر لكم، كنت أعلم بحالك أنت
وأملك الطاعة في السن، فلا معين لكم في تحضير الطعام، وإنما
نويت نيةً حسنة معكما. أما الزواج فهو مطلب عليك وإلا آذتك
أخوتي، ويجب عليك أن تأتي.

- لا أعلم، إني لا أعرفك يا امرأة، وإنها خطوة كبيرة عليّ،
لدي ماشية ودواب تحتاج لعناية مني، وأمي لها حق علي، وفي نهاية
المطاف ما زلت لا أثق بك.

- لا تسرح بعيداً في الأعذار، أنا سأقيم معك، وأساندك نهاية
عمرنا، أما عن مكاننا فلن تجده على الإطلاق في هذا الحيز
الواسع العلوي، إنَّ عقربنا تأسس في مكان بعيد تحتاج إلى دابة
خاصة للوصول له.

- كم يبعد من هذه الخيمة؟

- بسفنكم البسيطة ستأخذ منك الدهر بأكمله، أما بسفنا
سنصل في دق زمن ولن تشعر بتعب الطريق، والآن أنا على عجلة من
أمري، عشيرتي تحتسب وقت ذهابي وإيابي، سأتيك غداً.

ذهبت الأنسة خلف الخيمة وعندما لحقها؛ لم يجد لها أثراً،
وكأنما ابتلعته الأرض. كانت المرأة طويلة القامة طويلاً ينذر أن
ينطبق على المرأة، وجمالٌ مغايرٌ للمقاييس الطبيعية وكأنها
شكلت هي وجهها بنفسها، أما عيناها فكانا يغطيها الكحل
الأحمر وشعرها شديد الحمرة، حيث افتعلت فعلها إعجاباً بهذا
الابن المغوار، وربما عذرهما في الحن عليه وأمه كان حياءً لكيلا
تصبح سلفعةً أمام رجل غريب عليها.

طال النهار والليل ووالدته لم تصل، حيث رغب في اطلاعها
على ما حدث وأخذ رأيها، ولكن ما حدث أن الغنم رجعت وهي لم

ترجع. هلع الابن خوفاً إلى الصحراء المظلمة وهو عالم بما حدث لأمه ففي أقل الاحتمالات أنها سقطت من كثرة المسير، قاتلاً نفسه بالندم على توسيطها في رعي الأغنام.

حلّ الغسق، واسوّدت الأرض حيث تنعدم الرؤية، تردد الابن في الذهاب متذكراً أهوال الليل وما تحمله من خبايا مريعة، وما الآفة المارحة إلا غيظ من فيض يتوالد في الليل. إنما أمه ضاعت في الصحراء وربما تكون جريحة في استغاثة للمساعدة؛ وعلى هذا انطلق راجياً أن يجد أثراً يدلّه على أمه.

لمح ناراً تشتعل تدليلاً على نقطة تجمع ربما في كفنها قطاع طرق والأنسة التي خطت عليه تكون منهم، وتردد في التقرير حول فائدتهم - لا أحد سواهم - حيث جزم أخيراً على التوجه إليهم، وعندما اقترب حسّت به الجماهير حتى فزعت، فسبقهم بالرد:

- لم آت لافتعال الشر، أتيت بسلام باحثاً عن أمي - وعيونه تتوجس اليمين واليسار منهم حتى يكشف حبكة السرقة التي ستطاله ولكن لا أثر لأي امرأة - كانت ترعى الغنم، حيث الغنم راجعة وهي خابية لا أعلم مكانها.

رد أحد الرجال الذي ربما يكون قائد هذه القافية وربما الحملة المجهزة للسرقة:

- على مهلك، قبل الاستهالة من أنت؟

- أنا الهمداني.

- وأين هي ديارك؟

- أنا - تخوف من ذكر خيامه لعله يصرف انتباههم لو أرادوا

سرقته في غيابه - من خيام العجيج.

- نعم، خيام العجيج يذاع صيتهم بالتجارة مع أبعد الأبعدين.

- الآن نبدأ في المتن، متى غدت أمك عن ناظريك؟

- لقد كنت أرى الإبل والبقر وأخذت أرى الغنم لتحمل المشقة

عني في وقت انشغالي مع رعي الماشية الأخرى، وعندما أنهيتُ،

ترقبت مجيئها ساعات من عجاج ولم تأت إلا الضأن والمعزى بدون

راعيتهما؛ وهنا ثار رعي خوفاً عليها وأنا عالم أن مكروهاً أصابها.

- إذا ما نفعنا ما دام أنك من رجال العجيج ذوي الفرسان السباع!

نحن مجرد مرتزقة نبحت عن لقمة عيشنا في الاتكال على معونة

القبائل التي ترغب في جنودنا عند الحاجة، حاجات في سبيل الحرب

عندما قيامها لن تجد رجالاً تحمل النصال والرماح كمثّل رجالنا،

وفي سبيل الحراسة لا عيون تتحمل السهر غيرنا ولا قلوب تصبر على

الفضائع سوانا. يا رجل نحن لا نعمل بدون مقابل.

- إن مقابل عرق جبينكم سيكون من ماشيتنا، فلدينا النياق

والبعران والبقر والضأن والمعزى، خيارات كثيرة مقابل مساندتكم

لي.

- مقابل كل رجل من رجالنا بغير واثان من الضأن.

ضحك ظاناً أن الأبن لن يضحي بهذا الثمن.

- أوافق على شرطك، كل ما أحجاجة هو فارس منكم
يخلصني من علتي وهَمِي.

أتاه أحد المرتزقة بجواده وطلب منه الوثب على الجواد حتى
يستقر فيه ولا يسقط، مردداً له:

- ثب يا رجل على الخيل ولا تخف.

- أتقصد الركوب عليه؟

ضحك الجميع من سوء تقدير الابن لمعنى الكلمة موضحين له:
- إن الركوب وحده لا يكفي للاستقرار على دواب الحيوانات،
إنك راعٍ لدواب كثيرة، وفي حالة البعران من الواضح أنه سبق وإن
ركبتَ على البعران فكيف قمتَ بذلك؟

- أبرك البعير حتى ينزل إلى مستوى جسدي، وبعدها أطمُر عليه
حتى أجعله مَطيّةً تحت جسدي.

- إذاً في حالتنا لا نستطيع تبريك الأحصنة، فهذه ذوات الحافر،
وتلك ذوات الخف، وإن لم تثب على الجياد؛ فلن تستقر أثناء الحمل،
لا سِرٌّ يُنقر في الوثب، كل ما عليك فعله هو القفز قفزةً ملوحةً في
الأعالي، فإذا فشلت لن تستقر على الحصان، أما لو نجحت في
القفز؛ فإنك لن تحتاج لتعديل جسدك. الخبيّة كلها في عدم تعديل
الجسمان بعد الوثب.

وثب الابن وثباً شديداً ، ربما يعزى السبب لارتفاع ضجيج الدماء
في جسده إما خوفاً على أمه أو ارتعاباً من فظاظة الآفة المارجة الهائلة
التي سيتتبأ بها.

لما انطلقا ، اقترح المرتزق على الابن حيلةً تقليديةً لقصِ أثرِ أمه ،
ومنها ستُعرف الحبكة بكل تفاصيلها :

- هل تدل آخرَ مسارٍ اتجهت معه أمك؟

- المسار الذي قدمت منه إليكم ، كانت والدتي ترعى الماشية ،

وأنا على جزم أنها لم تغير مسارها ، بل أنها لم تبعد كثيراً.

- إذا ساعدتنا الآلهة. إن البحث في هذا الكثبان الغارق بالظلمة

لأمرٌ مستصعب على الأنفس ، حتى أعتى الرجال أمثالي لا يقدرّون
على مجابهة خبايا هذه الصحراء اللعينة.

ظن الابن أن المرتزق المتفاخر بنفسه يدرك ما تحمله الصحراء من آفات كالحية المارجة الخبيثة، وعلى هذه البيئة رد:

- ما لها الصحراء، عشنا معها عصوراً ولم نواجه خطراً غير البشر - يحاول أن يجس النبض لعله يستخرج مدركات الرجل الصحراوية - ولكن ربما تقصد شيئاً آخر أجهله أنا؟

- يُقال أنها خرافات من جموع الناس، ولكنني أصادق على حقيقتها، مخلوقات يا رجل، مخلوقات ليست من عالمنا، بل وحوش تتكر على زي إنس حتى إذا فاجأتها تخرج لك على هيئتها الأصلية. - إن قلت لك أنني مصداً لما أنزلت من حديث، فما هي هيئتهم الحقيقية لو تتكروا في الأصل على خلقٍ بشرية؟

- لو كانت مخلوقاتٍ مسالمة؛ فإن أهل الخبرة في خبرتهم فيما وراء الصحاري والجبال والسهول يسمونها الجن ومفردها جني، أما المخلوقات المؤذية والتي تضرك أكثر مما تتفعلك تدعى عفاريت ومفردها عفريت.

ويكمل المرتزق:

- إن أدهى هذه المخلوقات كيلاً وأقساها جرماً هم الغيلان المتغولة، التي تأتي في الليل على صورة شعاع كأنه نجم مشتعل، يجذلك إليه حتى يضرك في نفسك ولن تنجو معه أبداً مهما قويت عليه أو كثرتم عليه، مخلوق مفزع وخطير بحق. إن دواهي العرب قسموا هذه التصنيفات إلى أكثر مما قلت لك، ولكن لا أقدر على

الاستذكار إلا فيما سمعتَ أنت، وعلى هذا يجب أن نصير نابهين في خطانا وبحشتا، وأن نستعمل الطرق الشعبية في تتبع المفقودين من قومنا وغيرهم.

- بالنسبة لي، لم تظهر لي مخلوقات كما ذكرت، ولكن تشككت لي آفة عملاقة غطت عليّ كل مساراتي حتى قبعت في بقعتي راجياً المعونة من السماء لتنقذني، حية لونها أسود عرضها لا يحسب وطولها لا يقدر، ابتلعت اثنين من الفرسان كانوا بصحبتني، ويا لها من أحداث مخيفة.

- إن من هذه المخلوقات ما يأخذ أشكالاً عديدة، منها أشكال الحيوانات كالقنطريون والشعابين، وصولاً إلى هيئات البشر من نساء ورجال وأطفال أيضاً. على هذا، فأنا أصدق روايتك، وهناك الكثير أبشع مما قلت وقلتُ ينتظرننا.

أما الابن فلقد استرجع ذكرى الدخيلة عليه، دخولها من اللامكان في اللازمان وخروجها بنفس دخولها زاده شكاً.

حرثا الصحراء سائرين إلى المسير الذي مشت إليه الأم ولم تعد،
واكمل الابن الحديث:

- لقد ألزمت علينا أتباع الطرق الشعبية في تتبع فقيدنا! كل ما
يدور في خلدي هو أصول هذه الطرق الشعبية، فما هي بالتحديد؟
وكيف ستفيدنا في إيجاد أمي؟

- لدي في جعبتي طريقة كنا في السابق نستخدمها حتى مع
الأحياء القابعين حولنا لنجزم على حياتهم من مماتهم، ولكن لها
مثالبها الموجهة وأنا عن نفسي أبغض ترويضها إلى درجة تجعلني
أبغض هاته الفكرة.

- ولما تبغضها؛ ما دام أنها تظهر الحقيقة لنا! وما كان مقصدك
عندما أدركت لي أنكم استخدمتموها مع الموتى منكم، حيث إن
منيتهم حلت ولا حاجة لاتباع الطريقة!

صمت المرتزق قليلاً، حيث إن طرقاً كهاته، تعطي إقراراً
نهائياً في تحديد مصير المفقود حسب ظن الناس وقتها، وجهلهم في
تقدير حقيقة الأمر الواهن عن الواقعي، وعلى هذا رغب في اتباع
هذا المذهب الضامي وتصديق المرتزق حتى ولو كان في سبيل قطع
الشك باليقين.

يرد المرتزق:

- لن أطيل الكلام عليك، إن هويت في سلك هذا الطريق فلا عودة معه. هل حقاً ترغب في ملاحقة أهوائك رغم احتمالية تدميرها لك؟

- لم أرفض العرض هذا، وما زلت مُصرّاً على استحضاره إلى مشهد اليوم لعله يفيدنا في تحديد أثر والدتي، وارجُ أن تستعجل في تذكر طريقة أجدادك؛ الليل طال علينا، وطال عليها وهي ربما تكون مرهقة، فرب احمها.

استهل المرتزق في ذكر أسلوب اتبعه أجداده عندما كانوا يفقدون أصلاً أو فرعاً منهم؛ يغدرون القدر بالذهاب إلى بئر سيق لهم على مر العصور أنه بئر داخله جسر يجسر السمع بين أهل الأرض وأهل النعيم والجحيم على سواء، ومن خلالها يعرف أمران.

الأمر الأول إن ناديت بالصوت على فقيدك - ويجب أن يكون بنفس الاسم الذي سمته أمه به وليس أباه - ورد عليك هنا تعرف حقيقة مفاجئة، وهي موت من تبحث عنه وذهابه إما إلى أرض المحرقة أو إلى أرض المقامة.

الأمر الثاني - هو المستحسن - ألا يلتجأ ردُّ لك، وهنا تقاوم المثالب وتذهب ساعياً إلى إيجاد من تبحث عنه؛ حيث حقيقة وجوده تم تأكيدها.

بعد كل هذا الوصف السابق للشرح مروراً إلى تفسير حركيته
إلى التنبؤ بالنتائج التي تكون ختام الوثام، وحسب وصف المرتزق
فإن هذا البئر هو السحر بعينه.
عقب الابن على المرتزق متسائلاً عن هذا البئر، فرد الفارس
المرتزق:

- بئر الهداج، الذي ما زلت أتذكر بيت شعر لا أستحضر إلا
نصفه:

بين بياض العظام يفيض هداج.
- هو في الأصل بئر فيه من الماء العذب ما يشبع جماهيراً،
ولكن طال الزمن عليه واستهلكته رجالات من قبلنا حتى بقي من
الفيض غيضٌ تسلل إليه أجدادنا ونهبوه حاجةً إليه لا إسرافاً.
- وأين بئر الهداج هذا؟

- من حسن حضك أنها في منطقتنا الأم، تيماء.
لم يكن الابن الهمداني من مصدقي خرافات الأعراب الزائلة،
فحتى الأصنام لم يسجد لها من تألب ريام وغيرها من الوثنية
الصلدة؛ ولكن في قطع العذل تقوم الكبائر في سبيل إراحة
الضمير، وعلى هذا المنطلق لم يتردد في الموافقة على خرافة بئر
الهداج:

- إذا توكلنا على الخالق الهادي.

غيراً مسارهما وسلكا طريقاً محدباً أودعهما في رحلة أخذت
أياماً لا تحصى حتى وصلا إلى البئر العتيق، الذي تظهر عليه
علامات العتاقة والقدم. تبلورت فيه أجيالاً سلفاً عنهما حتى قضوا
على ما فيه من عذب إلى عدم.

أردف المرتزق مسرعاً إلى تنبيه الابن:

- سيحثونك على القفز في البئر؛ متباهين بجنة الأرض عندهم،
لا تستسلم لتلك الأفكار وحاربها كالفرس المغوار الذي يجابه
العربان بلا كلل وملل.

ورد الابن متعجباً:

- ماذا تقصد بهذه الترهات؟

- أن كنت شديد البأس لن يقدرُوا عليك، أما مغلوب الحال لا
مخرج له.

لم تكن هذه التعقيبات سابقة، بل أتت لاحقة متأخرة، حيث
لم يصدقها الهمداني لكونها باطلة مدبسة على خرافة.

وعندما مد عنقه حتى ينادي أمه، يا قطوف حتى رد عليه صوتٌ
سمعه في صغره إبان نعومة أظفاره ولم تكن أمه:

- أهلاً يا بني، أنت وصلت لمبتغاك، وأنا هنا لأنجدنك من
ورطتك، هلم عليّ في جنة الأرض؛ فأنا وأمك بانتظارك على نارٍ أحر
من الجمر.

- يا أبتاه، ذرني فأنا وحيد بدونك، فقدت أُمي على غيابك،
وخسرت الحياة بعد مماتك.

- أشهد أنك من صلبي، تذهب الأنعام ولن تذهب عني، اقدم
للحياة معي.

محادثة هوجاء بين أبٍ مشتاق وابنٍ لهفان، وإنما هو تصور تمنى
الابن لو كان صدوقاً، بل هو مخلوقٌ خبيث أراد سحبه جراً إلى
البئر الغائر حتى يسلب حياته، ولكن المرتزق النبيه كان نبيهاً في
العرفان، فأنقذ الابن من هذه الخديعة البائسة.

- ليسوا من تظنهم أنت، أنها مخلوقات نتتة تتغذى على عواطف
الناس المسكينة، فبق من غفلتك.

وصرخ عليه:

- دعني أذهب برفقة أسرتي، أنت لا تتمنى الخير لي.
وفي وهلة حسرة وصمت واع اخذ منه ردحاً من الزمن ليس
ببسيط، ختم المقال:

- تمنيت أن يكون هذا هو الواقع، أردت ذلك، وتمنيت حق
التمني، إنما الآن أنا مدرك أني وحيد، في عالم حقير. لقد صاحبك
أَمْلاً في إيجاد من فقدت، بل أني عارف أنها توفيت، ولكن ساقطني
الأقدار معك راجية أن تجد خاتمة حسنة. الآن يبدأ مفترق طريقنا،
أما مقابل حملك لي فخذ هذا السلسال المرصع بالذهب، لقد كان

لأمي ولكن الآن هي عند من يسكن النجوم ولن أستغل أموالها
على الإطلاق في تحقيق أعمالي بل سأصدق بها لأنها زائلة.

ادبر والحزن في عينيه، منذ أن رجعت الأغنام بالضأن والمعزى
إلى عقر مكانهم؛ أدرك الواقعة القاهرة، في خروج والدته من هذه
العالم البائس الوثني. بدأت تتناثر عليه سهوم الهواجس والتساؤلات،
التي تحاول إقناعه ببساطة الموقف، ولكن فقدان الوالد أمره ليس
بعليل، ووطؤه على الشخص مثل النار التي تسيل بين الصخور لا
نهاية لها.

ساق نفسه بين الصحراء وهو خالي الوفاض، بدون ماء ولا
طعام، حتى الدابة ليست معه إنما خلا سبيلها، في كربة أنسته
بطنه ورحلته الشاقة، حتى بعد مرور ربح من الزمن قرر القعود
استراحة في مكانه ولم يبق على خيمته من مسافة إلا القليل الهزيل،
إذ به يرى شخصاً مستتيراً من بعيد كأنه يحمل فانوساً في يديه.

دب إلى جهة النور، ووجده رجلاً ضالاً ولكنه لم يكن مجرد
رجل، حيث سبق هذا المرء الغريب بالكلام:

- إن أردت المعونة تعال بجانبني، ولك ما تتمنى وتشتهي.

- والمقابل؟

- كل ما تملك.

- أرفض ذلك، لأنني أعلم طبيعة جنسكم، أنكم مخلوقات حقيرة لا تعباً مثقال ذرة في الناس، ولكنك لا تخيفني حتى ولو أظهرت طبيعتك القبيحة لي.

لم يستمر السجال بينهما حتى فضح الغول عن نفسه، وأظهر أصله من طبيعه ولقد كان تحوله درامياً، حيث لف جسده عنه وعندها بدأت التحولات تظهر عليه، وبجسده يتبدل إلى اللون الأخضر متخذاً من كائنات المستنقع النتنة لوناً له..

والأهم بنبرة الصوت تغير إلى نبرة شخص عملاق أجش:
- هذا أنا، وهذا أنت، رجلان ولكن من أسلاف ليسوا من بعض.

- لستَ ندأ لي، بل مخلوق يأس قبيح تتغذى على من هم أدنى منك.

- نعم لسنا أنداداً ولكننا أكثر تفوقاً منك. إنما أرى بك ما يثير الاهتمام يا بشري، لما لا تخاف من سادة الأرض والأكثرهم عظمةً ودهاءً منك؟ وما الذي يميزنا عنك؟ حسناً، أنك مجرد رجل بسيط يعتاش على حصاد الأرض النادر، ولا يعمل إلا في جماعة، واهن لدرجة أنه لا يحرق الأرض إلا بالدواب، وضعيف حتى أنه لا يقدر على مطاردة أرنب ليصيدها، والأعنى أنك وبني جنسك لا تستطيعون غلق أعينكم إلا وكل سيفه في مذبح الثاني.

- قد نكون كما وصفت آنياً ، وإنما هذه الوقائع لا تستبدل حقيقة عدمية هيبتكم لدي ، إنني لا أراك إلا عالَةً في الأرض ، عابداً في نهاية الأمر لصاقل النجوم الذي خلقك من حلة عفنة ، أُعطيت قدرات احسن منا ، ولكنك حرمت من نعمة الفضيلة.

- وما هي هاته الفضيلة المزيفة؟

- فضيلة الرحمة التي فيها سخر خالق النجوم للأُم محبة الأبناء ، وحماية الراعي على رعيته ، ورعاية الحاكم العادل على محكوميه ، أمّا بنوكم فلا رحمة صُقِلَتْ فيهم سوى الحقد والكراهية. إن انتفاء النفع منك سيهوي بك إلى أسفل السافلين ، لن تجد راحماً من قومك يعفو عنك في أي صغيرة من صفائرك مهما حدث.

لم يستمر الكلام بعد هذا الإجمال ، ولكن رد الغول أخيراً :
- ألا تخاف مني؟ مع أنني قادر على سلب روحك في لمح البصر وأنت لا تعلم.

- أنك ببساطة لا تشير أية مخاوف لدي ، لقد جابهت من هم أشرس وأكثر متناً منك ، بل الأخطر.
بدأ الغول بالضحك واستهل :

- طبعنا هو الشراسة ، وطبكم هو الخوف. أنني أجزم على أن انقطاع وحيّ الخوف منك لا يرجع لكون الفراسة غطت عليك ، بل

إن هناك علة أصابتك ، غيرت مجرى الحبكة التي كنت أخطط لها ضدك. فضني بما واجهت.

- هل أصبحت الضباع تصادق السباع! يا للعجب، إن الرتوت أمثالك لا تعرف مثقال خير فيها ، الغول الذي سينهب مالي ويسلب روحي، اصبح رفيقي!

- لم أجد فيك من جاذب لي، أنك لعنة حزينة ، لم تعد حياتك تهكم ولو كنت قانعاً بالعكس لما قربت مني.

إن الذي لم يخطر على باله ، أن الغول سبق وأن ترصد عليه والمرتزق حتى عرف طريق عودتهما والذي يؤدي إلى قافلة المرتزقة المليئة بالأنعام، لهذا لم يكن يهمه أمره في نهاية المطاف.

- لقد فقدت أُمي. يقال أن شعور وفاة أحد الوالدين أهون مع شعور فقدان الوالدين لأحد أبنائهم، ولكنني مع ذلك أجّر نبرات الحزن، وأدمع دموع فقدان، وأنا عالم بأنهما لن يرجعا فقيدتي.

- يا لكم من ضعفاء يا بشري، إن خصلة الفضيلة كما تسميها هي سبب تعاستكم، إنك ترمي سهوم الجروح على نفسك وهذا لن يرجع لك فقيدك؛ من مات فلا مرجع له. ولكنني أكن لك مجاملة وقد تصبح مصادقة في حقيقة أنك رجل استثنائي، لم تهب مني ولا حتى نطفة. مع أن صنفك تتجمد الدماء في عروقهم، وتقف شعور أجسادهم، وتتصلب عظامهم عندما يشهدوني في حلتي الطبيعية، وعلى ذلك أشهد لك بالشجاعة والقوامة.

أخذته رأفة الوقت إلى أن طرح أسئلةً أغضبت الغول النتن:
- إذا، قل لي، ما هي طبيعة خلقكم؟ وهل لكم أزواجٌ من
ضلوكم كال بشر؟ وأبناءً تغيلونهم؟
- إن حدودي معك لا تسمح بالوصول إلى اطلاعك على أسرار
بني جنسنا، فنحن أكثر ذكاءً من أن نكشف أسرارنا على آدمي
واهـن.

أدرك أن استكمال القعود مع الغول مخاطرة لا فائدة منها، وإن
حلالاً وماشياً وصت أمه عليهما توصيةً إلى ابنها، مشددةً في قولها
له:

يا بني، مالك فاحفظ، وحلالك فتمسك، إن أقحط البشر في
الجماعة هم القواحط على أموالهم.
تذكر الابن وصية والدته، فلبى النداء وأدبر عن دنايا المخلوقات
حتى يريح وينجو.

في خضم الصحراء المتصحرة، من حسن حظه أن خيمتهم قريبة؛
لهذا سيصل إليها في ردح ضحلٍ من الزمن، ولكن عندما قدر ثم
فكر وجد أن رحلته إلى المرتزقة ثم هجرته إلى بئر الهداج أخذت منه
ليالٍ رجيمة حسب تقديره.

يردد مع نفسه بأن الحلال الموصى عليه من أمي فني، ولا مرجع
أو مخرج من هذه الواقعة. ربما ضاع الحلال من الأغنام والإبل عندما

قرر حينها ترجيح والدته على الأمور الدنيوية، فكانت النتيجة
ضربةً بين الحجاجين جعلته يفقد أهم ما يجعل الرجال من الغلبة.
بعد مسيرته للرجوع وإذا به يصل قعره، ولكن لم تطل وقفته إلا
واصطدم بحقيقة مهيبة!

وجد البهائم قانعةً في شبكوها، الغنم في الحظيرة، والإبل في
مراحها وبطونهم ممتلئة وكأنما أحد كان يراهم في غيابه عندما
هج باحثاً عن امه التي قُدر لها أن تموت. وعندما دخل خيمته وجد
ثيابه جاهزة حيث غُسلت وطُهرت.

وعندما بدأت علامات الغرابة تسيطر على الموقف، بدأ العجب
بيطل بالسبب، إذ اتضحت حقيقة الفاعل الذي رعى البهائم ونظف
الملابس، أنها المرأة التي كان يظنها لصاً في السابق يتلصص عليهم
ويعتدي على حرمة عقهرهم. لم يكمل الصمت بقاؤه حتى كسرت
المرأة بسؤالها:

- هل تريد أن أحضر لك رغيفاً من الخبر تسد به جوعك؟ فأنا
حلبت الغنم وجهزت لك الحليب مسبقاً.

- أقمت برعي البهائم طوال هذا الدهر؟

- نعم، ولم يكن تكلفاً مني، بل نجدةً لك عندما هرعت بحثاً
عن أمك.

إن الجوع كافرٌ كما يقال، لم يأخذ وقتاً طويلاً للرد لسوء
حالته، حيث لم ينم منذ ليالٍ، وبطنه تسع بغيراً.

- لو استطعتِ على ذلك، قوتكِ الآلهة.

فتحت كيس الطحين، وبدأت تشعل الحطب لكي تصنع للابن الجائع قرصاً يجيره من جوع الدهر، ثم دهنت الصاج بالطحين المخلوط بالماء حتى نضج الخبر فقدمته للرجل، الذي طار بهذه الوجبة البسيطة ولم يبقِ منها حتى الفتات.

استهل الابن:

- لا أستطيع أن أجزيكِ على فعلتك مهما صنعتُ، رعيّت الغنم والإبل، وكسيتني مما يلطف به المرء بطنه، وعلى هذه الصنعة منك، فلك من الرؤوس ما اخترت من الغنم أو الإبل جزاءً لك على كرمك وفعلك المشرف.

- لا تنسى وعيدنا، وأريدها مهراً منك غداً.

أدبرت الأنسة ثم ولت ظهرها له، وعندما خرجت من الخيمة هبت هبوباً عاتية وتوقفت بعد ربح قليل من الزمن. لمح ناراً على بساط الخيمة مما جعله يبصر فزعاً، ولكن اتضح له أن هذه النار مجرد سلسالٍ يعود للمرأة وحسب، فهرع خلفها ليعطيها غرضها ولكنه لم يجد شيئاً على الإطلاق وكأن الرياح التي هبت ابتلعته بعيداً!

كان الموقف مريباً، وهو يردد مع نفسه - أين ذهبت المرأة؟ هل كانت موجودة في الأصل؟ - ولم تطل جوانح الأسئلة حتى رجع

للسلسال الذي شهد أنه سلسال فريد من نوعه، وليس مجرد حلية تافهة.

كان السلسال قُطري الشكل، وجوانبه زُخرفت على هيئة مثلثات صغيرة محددة على إطار القطر، وكان في وسط القطر ياقوتٌ مشعٌ وكأن فيه ناراً تشتعل داخله.

كانت هذه النار مرهبة، واتضحت حقيقتها عندما خمد هو إلى فراش النوم والسلسال بجانبه، فلم يقوَ على النوم من قوة النور الذي يشع من هذا السلسال الخلاب، وهي يسأل نفسه: ما نوع هذه الحلية الفظيعة! لم أرَ بمثلها أي حلية تشابهها قط، ربما تكون زمرداً أو مرجاناً، ولكن ما سبب توهجها العنيف!

أسئلة حائرة لم تجد من يجيب عليها، ولكن اصر على رد السلسال إلى صاحبه؛ وعلى هذا عند قيامه من هجوعه ذهب حتى يرفعى المشية، ودعا الخالق، ربُّ شد أزري أنك السميع العليم.

انطلق يجول بالبهايم وفي باطنه يأمل أن يصادف تلك المرأة لعله يرجع لها ما كان ملكها حتى يزيع عنه حمل ملكٍ ليست ملكه.

مر ردح من الزمن بلا إشارة، حتى صادف ابن سبيل في طريقه ولم يعره أية انتباه، بل إن المسافر بادر التحية حيث ظهرت عليه علامات الهرم في السن:

- السلام على الراعي.

- وعليك السلام يا هذا.

- ماذا يفعل رجل بيهائمه في هذا الحيز العتيق، حيث لا توجد
نعم للرعي بها!
- أرى الأغنام كل نهار في هذا المحيط والبراح، ولا أرى ما
تشير إليه يا كهل.
- أمتأكد أنت؟ انظر حولك.
- نعم، صدقت! هذه ليست الأرض التي أحرث منها معيشة
غنمي، لقد سقط عني سهواً مساري المعروف، كيف حدث هذا!
- لا يفيد العتب على النفس بعد قضاء الأمور، ولكن يجب أن
تعلم أنك في أرض ليس للبشر فيها قنطرة خير، فلا تأكل من
ثمارها، ولا تشرب من آبارها رشفة واحدة، ولا تتغنى بأشجارها ثم
ترتاح عندها.
- وما دام رزقها لا يشملنا، ما يجلب كهلاً مثلك في مكان
كهذا؟
- أنا مجرد ابن سبيل يسافر لا أكثر.
- لا أرى معك غرضاً واحداً يعينك على الترحال يا كبيرنا.
قولك وتحريمك هذا، لا يؤثرنى إلى تصديقك، ولما أخالف كلامك؟
حسناً، هي ليست ملك أحد سوى مدبرها ولو صادف العكس
سأعلم بذلك، إذاً هي أرض للناس جمعاء.
- يا رجل، ايقن الخفايا من البطون.

ولّى الكهل وجهه، ولكنه لم يهتم بما حذره منه وأدبر ظأناً أنه
حادث مجنوناً من مجانين البدراء.

أما الآن فالأهم هو رعي الغنم وملء بطنها إذ هي آخر عطايا
الرب والملك الوحيد بعد أن فقد والدته.

جال مع البهائم ولكنه في إبان مشيّه حدث وأن وطأ يده إلى
جيبه الجانبي، وحمل في يده السلسال وإذا بشرارته لم تعد حية
مثلما كانت!

وكان نورها انطفأ بريح لا نفس له، هنا بدأت الشكوك
والمخاوف تضغط عليه حتى كانت أن تبور منه، ولكن جلالة
العرب وصلابتهم لن تجعله يرجع إلى خيمته رعباً بسبب أحداث
عرضية.

لهذا عزم على نسيان قصة السلسال الغريب العجيب الذي كان
يوماً يشع ببحور الحياة، فمات في أرض ميتة. وعلى هذا مضى
بالبهائم مترنحاً من إرهاق لا سبب له وباحثاً عن ظل في شدة الشمس
الحارقة، حتى لمح نوراً في وسط العراء، ومن علمه وخبرته وسوابقه
مما شهد، علم أنه فخ آخر، وعلى هذا غير طريقه.

سار بضع ساعات ولم يعد يحس بالزمن حتى أن فقد أغنامه.
ولما رأى النور مرة أخرى تبعه ووافق على شروط صائد العراء وعقد
صفقة سرية معه، بعدها أنطفأ كل شيء حوله.

بعد مضيّ وقت، فزع من نومه ووجد نفسه في غارٍ على أعالي
الجبل ولا شيء يضاء حوله سوى القلادة التي معه.

فزع في الأصل عندما استوحت له أغنامه وما معها من ماشية
تركها خلفه. قرر السعي خلفها لعله يجد معقلها التي ولت إليه. وفي
ثنايا عودته إلى خيمته وجد مشهداً جعله يخاف حق الخوف أكثر
مما واجهه من قبل، لقد تغيرت الدنيا وتطاول الحفاة العراة في بناية
البنيان.

لما خرج من الكوخ وجد عالماً لم يعهد عليه من قبل، صحا في
عالم ليس بعالمه وزمان غير ذي زمانه. في المستقبل حيث أحدثت هذه
الصفقة لعنة غيرت بها مجرى التاريخ ونقلته مئات السنين إلى الأمام.
تم محو خيمته عن بكرة أبيها، وبناء محطة من بنيان المجتمع
المدني الحديث حيث توفر للمسافرين كافة الخدمات، مشى لها
الهمداني بدهشة مما يرى، دواب كبيرة تتحرك وداخلها بشر وناس
بأزياء مختلفة وأنظف من أسلافهم، وأعراق متجانسة لا يعرف من
فيهم العربي والأعجمي.

وهو يحاول استيعاب ما جرى وإذا به يسمع صوت زئير عالٍ وغير
معتاد خلفه حتى أجبره الصوت أن يولّي عليه ليرى تلك الدابة الحمراء
خلفه داخلها رجلين وكأنما ابتلعتهما الدابة.

وإنما كانت مركبة من صناعة البشر الحديثة، حيث لا يستوعبها رجلٌ رأى العالم الآن بعدما غفا داخل غارٍ قرونًا مريرة كغفوة أصحاب الكهف.

لم يستمر هذا الجمود حتى سمع شخصًا يلحن الكلمات!
صوت ملحنٍ يعظم من شخصٍ يسمى الله!
والهمداني يبحث عن مصدر الصوت، ويشكو في نفسه تعدد الآلهة، لذلك قرر تتبع الصوت ورؤية الإله الجديد المزعوم، وفي طريقه استمر هذا الملحن بالتشاء على الإله. الله أكبر الله أكبر، حتى وصل إلى ختامه: لا إله إلا الله!

فتعجب من هذه المقول، فكيف للعرب أن توحيد أربابها وأصنامها وأوثانها في شخص واحد؟

تجمع التابعون ووقفوا أمام رجل ظنه الرب المزعوم أو ممثلًا عنه!
ووقفوا يكبرون على الجدار، حتى جلس الأعرابي يتتصت عليهم ليعرف ما الجديد في هذا العالم، عندها استهل الإمام سورة الفاتحة غريبة المسامع عليه، فتلاها بتلاوة آثرت في نفسه عن فصيلة تسمى بالجن، إذ قد جابهها عدة مرات وهزمها ثم هزمته في الآخرة. تلا الإمام في الآية الأولى: قل أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجَنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قِرَاءًا عَجَبًا

عندها سمع رجالاً من الواقفين متأثرًا بالتلاوة: إِنَّا حَقًّا سَمِعْنَا العجب!

ثم عاد وقال: يهدي إلى الرشد فآمنا به وكنْ نشرك بربنا أحداً
ورد عليه نفس المصلي: إنه الله لا إله إلا هو!
عندها تأثر بما شهد، حدّث نفسه: أي رب تخضع له أجلى
المخلوقات وأكثرها قسوة؟

عندما خلصت الجماهير من دعوتها لربهم الأوحّد، همّ يبحث
عن هذا الداعي الذي تحدث من جموع الناس ورد على صاحب
الترتيل مصدّقاً لما يقول، إنما لا أثر لهذا الرجل لكثرة الرجال
وعدهم.

خرج من المعبد كما يصفه، إلى مكان جذبه بالرائحة الزكية
التي تفتن النفس!

كان مطعماً يقدم وجبات للمسافرين، حيث أندهش الجائل
بين الناس الذي نسوه والعالم الذي نبذه، وعندما دخل المكان
تعجب من الزخرفة والبناء الذي بنيت به، متسائلاً عن كيفية
بنائها، أكانت حجراً أم طيناً من نوع استثنائي؟

عرج على كل من في المطعم يلقي عليهم نظرات الفضول فاحصاً
لهم حتى يتأكد من واقعه، حاسباً أنه كابوس خبيث! ومحاولاً
القيام منه. ولكنها كانت لعنة أبدية بل نقطة ثابتة لا يحول دونها
أي سبيل للتغير.

أصابه الفزع لما علم واقعه الثابت، وأنه حقاً غفا مئات السنين،
وتغيرت الأحوال والعالم، بل حتى لكنة البشر من حوله وملابسهم

وما يحملونه من غرائب من صنع العجائب، فلا تفسير لها لرجل لا
يملك من المعرفة سوى رقعة ثوب مهترئة طال عليها الزمن حتى غدت
سوداء مثل العباءة.



الفصل السادس

انهى الراوي حكايته، وقبل قيام مخاطبيه، ذكر نبوءة تاريخية عن رجل في آخر الزمان سيكون أول محارب في التاريخ عزم على مجابهة بواطن الأرض والقضاء عليهم عن بكرة أبيهم. سأله جمعاً عن هذا الرجل وأوصافه، وما كان للحاكي إلا أن يلتف على السؤال:

- سيكون نقطة ثابتة في التاريخ لا تقبل الزحزحة ولا لأحد سبيل عليها، قدر له ما قدر ولا مخرج له سوى الخضوع للقدر وتقبل واقعه المحتوم.

- لما لم تكمل القصة، هل تعمدت إنهاءها مبكراً؟
- لأن مسار القصة مثل وادٍ بين جبلين، سيبقى هذا المسار بين الجبل وعلى ناصية واحد حتى يغير الله الحال بحال.
- وماذا لو هُدم الجبل على هذا الوادي؟
- ما لبشري على تحدي ما كتب له من الله ومجابهة الطبيعة القاصمة!

- يا هَرم، هل الأقدار مسيرة أو مخيرة؟ وإن كانت مسيرة أهذا يعني أنك مهما صنعت لن تجد سبيلاً لك من علل الحياة المرة!
- يقول الله سبحانه في كتابه الكريم: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا. الآدميون فيما تقول كافة الأديان الإبراهيمية قبل تحريفها من الناس، أنه مخير في نفسه، فهو يحمل الخطايا

والصلاح، ولكن من يعمل على إظهار خطاياہ فقط خاب وخسر،
ومن ساهم في إصلاح نفسه سيجد طريقاً له في العدول عن نبأہ
المحتوم، إذا الإنسان مخيراً في طبيعته وليس في الطبيعة نفسها ما
دام وُهبَ ملكة التقرير في حياته.

قبل رحيله طلب من الراوي أمراً:

- هل كانت مقابلتي لك صدفة أم قدراً؟

- أخبرني أنت، أتظنك هدمت الجبل على الوادي كما تدعي؟

أدبر في نهاية المطاف وولى عن الراوي، وهو يجول بأسئلة ثقلها

يزن جبال أحد لا مجيب لها ولا جواب. أما أحد الأسئلة فكانت: إذا

كانت مقابلتي للراوي مقدرة، أهذا يعني لو أنني غيرت أحداث

القصة المحبوبة سأسلم من تداعياتها؟

لإعمال سؤاله والبحث عن جواب، قرر الرجوع إلا مكان

الشر، النقطة التي بدأت معها كل الأحداث، وتمنى أن يمحو هذا

الشائبة من حياته، بل هي عصية على البشر لو علموا!

عزم الرجوع على قدميه مستغنياً عن كل السبل التي خطط لها

مسبقاً، وهو متأكد بإمكانية تغيير القدر لو أتخذ الإنسان سبيلاً

غير الذي أراده.

حتى عندما وقفت مركبة من أجل مساعدته قرر عدم ركوبها

ظاناً أنها من تدبير الأقدار، وأنه لا يوجد شخص يمشي في وقت

تلتهب فيه الأرض من الحرارة إلا من أراد تغيير مستقبله.

لم يتردد في رفض أي مساعدة أو أمر يريده، حتى عندما أراد

الاستراحة حسب أنها من تقدير النبا عليه وليس له.

عندما يحاول شخص مجابهة القدر فإنه يظن أن تحوير كل ما

عاشه في ماضيه سيغير مستقبله، إنما العلة أن القدر ربما يكون

محتومٌ خلافاً على ما تعلمه الفرد وما عاشه ومكانته الاجتماعية ووعيه للحياة وكل شبر حسّت به أحاسيسه الخمس ، كلها ستكون مواقف تعمل مع وضد الشخص نفسه.

في خطاه كان يسعى للرجوع لأصل الجذر ويحاول أن يغير كل ما تتبأ به الكهل الراوي ، رغم عدم سماعه للحبكة كلها !
حلت بدايات الشفق وأقرب تعاقب الشمس إلى القمر قرابة شبر؛ وهو لم يصل لمكانه بعد ، إذ يطمح لعله يجد الرجل الذي سرق منه خريطة الكنز المزعومة ، حتى يعلم خفايا هذه القصة برمتها ، ربما لتغييرها أو لتبنيها ، ولكن في ثنايا هذا السير ، إذا بنور يشير من بعيد وكأنه شخصاً يلوح بكشافٍ طلباً للنجدة وسواه حتى لم يعره أية أهمية تذكر ، ربما ظناً منه أنه من وحي الأقدار له.

وعندما تجنب طالب النجدة ، وجده بعد قطع مئات المترات يلوح بمصباحه وكأنه انتقل من مكانه قفزاً ، مخالفاً قوانين الطبيعة المنطقية.

موقف كهذا يتطلب مقدماً يقدم عليه حتى يعلل ما به من علل ، وهذا ما جعله يخطو تجاه ناصية المشير بمصباحه ، وعندما اقترب منه وجده يبعد أكثر فأكثر ، كأنما يسحب نفسه ببساط سحري غير ذي فهم للناس.

ولحقه ثم لحقه حتى توقف صاحب المصباح، وإذا به يقترب منه فيجده بحلٍ طبيعي رغم قدم ملابسه التي تذكره بأشخاص وربما شخصين قابلهما في السالف:

- لما تباعد وأنا آتٍ لك للتحقق منك، مسالماً معك وليس مجرمًا عليك؟

- فعل تافه مني ولا قصد مني.

- لما تحمل مصباحاً معك في وسط هذه الصحراء القاحلة، بلا عون ورفيق ولا تبدو عليك علامات قطاع الطرق؟

- أسلوبى أنطوى عليّ حتى أصبحت ألقب بابو فانوس، هذا الاسم الشهير الذي خلّده رواتكم ممن رؤوني وشهدوا عجائبي.

- ومن تكون أنت يا أبو فانوس؟ ولم نذكرك في كتبنا أو قصصنا كما تزعم!

- سقط سهواً عني أن أذكرك بأنه سيحدث في المستقبل وحسب، إنما الآن أنا خلفٌ على سلفي لم توثقن العرب في كتبها حتى الآن، إني يا رجل من مثلك مجرد عابر سبيل ينجد من ضاقت بهم السبل في هاته الطرق الوعرة.

- وكيف تتجدني وأنت لست بحاملٍ شيئاً سوى رقعة ثوبك ومصباحاً يوشك على النفاد!

- أستخدم المصباح لتذليل ظلمة الليل وجلب من ضاقت به الطرق إليّ حتى أنجده.

- والمقابل على إنقاذي؟

- قلادة متوهجة معك، فقد أرمها لي وأدلك على مكان تبرج به

نعم الحياة كلها.

- وماذا لو رفضت؟

- سترى مني الزعاف المميت على جنسك، وسأبيت الدهر في

الصحراء، أجولها بحثًا عمن أقصم ظهره بتحريف طريقه ورده عن الصواب.

- المسألة يا أبو فانوس لا تكتمل مع إهلاك حيوات الناس، لما

تشتت الناس عن طرقهم وتحرفهم عن مساراتهم إلى هلاك لا مخرج ومطلع منه.

- وهل يطالب المخلوق بتسبيب أفعاله؟ لقد خلقنا يا ابن آدم من

نار مارجة، سوداء كسواد لم تشهده أنت وسلفك، نُزِعَ في قلوبنا مرضُ الحقد والكراهية للبشرية، المخلوقات الكريهة الواهنة، وأنا عن دربي لن أحيّد!

هنا أدرك أن مهمته تغيرت، وأن مصيرثة من الناس يقف على

عاقته في مجابهة شيطان حقير ظهرت أهدافه اللعينة.

- يا ابن النار، أنا ابن صعصعة، والله أني وليت نفسي عليك

حتى يوم الحساب؛ أن أرد عن الناس أخطارك ممن يتبعونك حتى أصوب طريقهم إلى طريق حسن.

بنى على نفسه وعيداً لن يقبل دحضه، وما هي إلا مهمة تتطلب المال والعمل والجهد لذلك، ثم خطط كيف يحث الناس على البعد عنه، من يصدق رجلاً يصيح بالناس في الكثبان حتى يبعدهم عن غول يعميهم عن دربهم ويضلهم سواء السبيل.

خرج عن هذه المنطقة صوب الطريق لعله يجد من يقله، وحاول تذكر معالم المكان وحفظ مساراته حتى يرجع له لاحقاً.

وفي اجتهداه لحفظ المكان، إذا بصاحب عربية حمولةٍ يحمل في مقطورة العربية علماً وشعيراً للأغنام، يتوقف عنده:

- ماذا تفعل في غمرة هذه القاحلة؟

- هل تسأل لتعرف، أم لتشاركني المسير فيها؟

ضحك السائق وعلم أنه في رُحْب رجل نظيف النوايا، ولا يضر شراً تجاه قائد المركبة.

- اركب يا رجل، وحدثني عنك، فأني أرى فيك علم الدهر! ركب معه، وكان في جوفه يعلم أن إطلاع غريب على قصة كهذه؛ ما هي إلا مدعاة للجنون والخرافة، ولكن قطع على نفسه وعداً شديداً في مجابهة ملعون القاحلة الغول وإخطار الناس عن مخاطره؛ لعلهم يدبرون عنه.

- لست ممن يتبعون أكاذيب الجاهلية، ولكن ما صادفته اليوم يغير كل شيء، يغير التاريخ بأكمله، أنها نبوءة تستحق نبياً لها، نعم أنا من سيحكي القصة أخيراً.

- وما هي القصة يا رجل؟ فلقد أربكتني!
- أنها قصة نتنة عن مخلوق يجوب صحاري الخرمة، يلقب نفسه بأبي الفانوس، ذو مظهر قبيح ليس منا رغم تشابه صفاته بنا، الغرور والحقد والطبيعة الأنانية، أما أنا فلقد قطعت على نفسي وعداً بمعاقبته وصد الناس عنه.
- لن يصدق أحداً في بداية الأمر قصة كهذه ولكن عندما حكاه بهذه الطريقة جعل صاحب العربية يصدق مقاله وكأنه يراه بعينه؛ إيمان تام ليس بجديد على البشر.
- ماذا تحتاج مني؟ فأنا معك فيما أقدمت عليه، فقل.
- ما زلت أخطئ وتقصني العدة حتى أقوى عليه وأضربه في مضرب الموت.
- كلما طال الزمن بك وجدت صعوبة في الوصول لحلول قاصمة، أسرع الحلول وأكثرها تهوراً قد تكون أفضلها بحكم أن ظروف الظاهرة لم تتطور بعد، وأصعب المشاكل تتطلب أبسط الحلول!
- أخذ السائق إلى أقرب مكان للاستراحة عارضاً عليه الاستراحة ووجبة، وعندما وافق أتى السائق بالغداء له بدون قسم له؛ معللاً ذلك بأنه يفضل الغداء لوحده. ولما خرج، لحقه فوجده يهرس العظام. وبعدها علم ألا رفيق له بعد الآن سوى نفسه.

بعد مرور عقودٍ من الزمن، غدا الآن راوٍ للحكاية، فمن كان بطلها أصبح راويها.

تتضارب به الأفكار والتصورات حول ما جرى في آخر لقاءه مع آخر مخلوق حي أو ميت أو كلاهما.

مرت فترة طويلة في آخر غول جابهه ويتمنى ألا يقابل من هاته المخلوقات الكريهة البشعة أحداً.

بعد صدمته في أعقاب رؤيته لقائد المركبة يهرس العظام؛ علم أنه في حاضرة غول آخر من بني الغيلان، على عينٍ من قابلهم في محطات حياته، وكأن في حوزته جاذبية تجذب هالة من الإعجاب حوله، ولكن في حالته لم تجذب له إلا القذارة.

يحكي للناس للمخاطبين قصته، وكيف وصل إلى ما هو عليه الآن، حيث تبدأ ليلة الملحمة من يوم هروبه من المكان وإيابه إلى نفس ما كان عليه، ابن سبيل شبه ضائع في منطقة ضخمة التضاريس وقليلة التكدس من الناس.

عندما فكر نقدياً في أسباب كل هذه المشاكل؛ خلص أخيراً أن منبع الخطر بدأ مع إقلاله لضائع السبيل المشرّد، نعم الحكاية الخبيثة تبدأ من هنا كما يحسبها.

قرر بعد عناء كثير في التفكير، الرجوع إلى آخر موقع تقاطع له مع الغول، ولكن هاته المرة لم يكن لوحده، مرت السنين حيث قدر على تكوين جبهة من الرجال المؤمنة، جال العالم ناشراً لمذهبه

الجديد ، ومكوناً لطائفةٍ درست الجن وفصائلها حق دراسة وعُلمت
خباياها وكيفية قتلها مستخدمين معادن الأرض كأسلحة لهم.
عندما أنهى طرح الحكاية بكاملها ، غفا في قصره ، وفي
صدى غفوته ، رجع له حلمه ، أما هذه المرة كان الحلم كاملاً.
كان رجوع الحلم كاملاً ، أما في هذا السياق ، الحلم رجع
بسماته القويمة وبطلها ليس نمرود الطاغية ولا الملك سليمان ، بل
جمعان ، في وسط الصحراء على قصر عاج يلوح أنظاره ومتعهداً
بالقضاء على غيلان الصحراء وأعوانهم للأبد ، مرجحاً الجنس
البشري على غيره ، ومعلنًا حرباً أبدية على مخلوقات الوشاح في
بواطن الأرض ، مطلقاً على قصره قصر الدويحي الذي يحمل فيه
من الكنوز ما يغطي الأحياء والأموات ومن بعدهم.

